مكسيم غوركي

كيف تعلمت الكتابة

ومقالات أخرى

ترجمة مالك صقور

كيف تعلمت الكتابة

دار الحصاد للنشر والتوزيع
دمشق برامكه جانب سانا
هاتف : ٢٤٦٣٢٦
ص. ب : ٤٤٩٠

تنضيد وإخراج
القسم الفني في دار الحصاد

مكسيم غوركي
١٨٨٦ - ١٩٣٦

إن احداً لم يكن بوسعه ، أن يعرف أو يتنبأ لذاك الفتى الاشعث الطويل ، النحيف ، ذي الاكتاف العريضة ، أصفر السحنة ، الصبي المتشرد ، الذي يرتدي معطفاً فضفاضاً ، أنه سيكون ذائع الصيت ، وأن اسمه سينطلق حارج حدود وطنه إلى انحاء العالم ، كواحد من اعظم الكتاب ، الذين وقفوا حياتهم لخدمة الانسانية ، ومن أجل تحريرها ، من ربقة الظلم والاضطهاد ، والتعسف ، ومن أجل الحرية . . إنه الكسي مكسيموفيتش بيشكوف .

* * *

ولد الكسي مكسيموفيتش بيشكوف في ٢٨ أذار عام ١٨٦٨ في مدينة نيجني نوف غورد (مدينة غوركي حالياً) . وبعد أربعة أعوام ، مات أبوه بوباء الكوليرا . وقبل أن يتم العاشرة ، ماتت أمه (فارفارا فاسيلفتا كاشيرنا) . وهكذا ، قدر للفتى الكسي أن يعيش اليتم ، ويقذف به بعيداً على دروب التشرد والجوع . فعاش في كنف جده ((فاسيلي كاشيرين) ، والذي وصفه غوركي ، فيما بعد ، أنه كان قاسياً جداً ، غليظ الطباع . وما أن أتم العاشرة ، حتى قال له جده : " والآن ، ياالكسي ، انك ، لست ميدالية على صدري . قم واذهب الى الناس" . ومن تلك اللحظة ،انطلق الصبي ، وانخرط في صفوف الناس ليعاشر اصنافهم ، وليعاين أفعالهم ، وليختبر طبقاتهم ، وليذوق مبكراً جداً ، مرارة العيش وشظفه ، وليكتشف بنفسه رويداً رويداً ، قساوة الحياة ، وشناعتها ، وليعاني من ظلم المتسلطين على رقاب الناس . هذه الحياة الشنيعة القاسية ، أيقظت في روح الصبي المراهق اليوشا بيشكوف الكره الشديد لكل مظالم الأرض ومفاسدها ،ودفعته للتمرد ، وليردد طويلاً : "

جئت الى هذا العالم كي لأوافق" . وليحب فقراء القاع ، والالتزام بهم والدفاع عنهم .

* * *

بدأ غوركي حياته العملية ، أجيراً صغيراً ، في مخزن لبيع الأحذية ، ومن ثم انتقل ليعمل غسال صحون على باخرة . وكان معلمه على الباخرة ، الطباخ ميخائيل اكيموفيتش سموري ، الذي ايقظ فيه حب الكتب والأدب . فالطباخ هذا ، كان بحوزته صندوق مليء بالكتب . يحمله أنىّ ذهب ، وكان ذلك الصندوق ، على حد تعبير غوركي : " أعجب مكتبة في العالم" . ضمن هذا الصندوق مختارات جيدة ، وجميلة من الكتب ، التي اختارها صاحبها بدقة . . هذه الكتب ، فتحت أمام الصبي آفاقاً واسعة ، وإن كانت جدته في صغره عّرفته بالشعر الشعبي ، فإن (سموري) جعله يحب الكتب طوال حياته . ومن خلال الكتب ـ كما قال غوركي : " عرفت الطمأنينة الروحية ، وجعلتني أثق بنفسي ، وعرفت ، أني لست الوحيد على هذه الأرض ، وأني لن أضيع" . بعدها ، انتقل ليعمل صانعاً في ورشة ايقونات ، ومن ثم عاملاً في سوق المعرض في مدينته ، كما وعمل ممثلاً ثانوياً في المسرح ، وبائع شراب (الكفاس) . لينتقل بعدها الى عمل آخر تماماً ، فيعمل خبازاً ، وعتالاً ، وبستانياً ، كما وعمل قليلاً في جوقة غناء . واخيراً ، انصرف الى جمع الخرق والاسمال مع المتشردين ، وصار يجوب معهم انحاء روسيا في سني المجاعة الكبيرة ، التي حاقت بروسيا . في تلك الاثناء ، هب كل من الكاتب العظيم ليف تولستوي ، وتشيخوف ، وكورلينكو ، لاعاثة المحتاجين والجوعى . الذين يموتون في الطرقات . يومها لم يكن غوركي ، قد اصبح كاتباً ، كان مجرد جائع ، متشرد على الطرقات . لقد أصيب الصبي بنوبة يأس قاتلة ، فحاول الانتحار ، ليضع حداً لهذه الحياة . لكن الرصاصة لم تصب القلب ، بل اصابت الرئة ، وقدر له أن يعيش . هذه المحاولة سببت له العار طويلاً ، والخجل الشديد كلما تذكرها .

* * *

في عام ١٨٨٤ رحل الكسي بيشكوف الى قازان ، وهناك حاول الانتساب الى جامعتها ، لكنه لم يوفق فظروف الحياة حولته الى مواجهة د روس أخرى ، كانت

أصعب ، وأقسى مما تصور هو ذاته . ومن جديد شرع بالتجوال في أرجاء روسيا الى أن حط رحاله ، أخيراً ، في مدينة تيبليسي - في القفقاس . وهناك ، كتب قصته الأولى : " ماكار تشودرا" . في حينها ، لم يجرؤ على التوقيع باسمه الصريح . فوقع باسم مستعار : " غوركي " ويعني " المر " . ومن حينها ، اختفى والى الابد اسم اليوشا بيشكوف ، واشتهر ، حتى يومنا باسم مكسيم غوركي . وهكذا ، بدأ غوركي حياته الابداعية ، شاقاً طريقه بصعوبة . بدأ رومانتيكيا ، ليتحول الى الرومانتيكية الثورية ، ومن ثم الى الواقعية . . فالواقعية الاشتراكية .

في تلك المرحلة من حياته ، كتب غوركي عن حياة الناس الذين التقاهم في الطرقات ، وتشرد معهم ، وعاش بينهم في الملاجيء ، كما وكتب الحكايات والاغنيات .

بعد قصته " ماكار تشودرا" ، كتب غوركي : " الجد أرخيب ولوفكا" . و"أغنية عن الصقر" و "تشلكاش" و " كونوفالوف " و " ستة وعشرون رجلاً وفتاة " و " العجوزايزرغيل" . وقصصاً أخرى كثيرة . عّبر من خلالها عن الحرية ، وسعادة الشعب المرتقبة . ففي " أغنية عن الصقر " يقارن بين الصقر والحية . إذ يبين حكمة الصقر وبطولته ، واستعداده للتضحية بنفسه من أجل الجمال ، والحرية ، والعطاء . في حين صور أنانية الحية ، وحقدها ، وسمها ، وضيق أفقها . فالقارىء يفهم من هذه المقارنة ، أن قصته تلك ، أو بالأحرى ، حكايته ، غنيّة بالرمز الانساني الجميل ، الذي يتضمن " حكمة الحياة" . وفي تلك المرحلة ، التي كتب فيها قصته ، لم يكن غوركي يرى آفاق الثورة المقبلة . لهذا ، يموت الصقر في نهاية القصة ، وعندما تسأله الحية : " هل أنت تحتضر ؟" - نعم ، احتضر ، وأخذ يتنفس بعمق ، وتابع : لقد عشت حياة كريمة . . وأنا أعرف السعادة ، ولقد قاتلت بشجاعة . ورأيت السماء . وأنت ، لن تريها عن قرب . آه ، ايتها المسكينة" .

في عام ، ١٨٩٤ كتب قصته " العجوز ايزرغيل " ونشرها ، في عام ، ١٨٩٥ وهي اسطورة . مضمون هذه الاسطورة ، تدين الفردية ، وتنشد البطولة . من أجل الحرية ، وسعادة الشعب . في هذه الحكاية - الاسطورة ، يبرز غوركي نموذجين : نموذج الانسان الأناني ، المتغطرس ، المتكبر ، المتمثل بالشاب (لارا) ،

ونموذج الانسان الرائع المضحي بنفسه في سبيل الشعب ألا وهو (دانكو) .

لقد ارتكب (لارا) جريمة ، اذ قتل فتاة ، لأنها لم تقنع به ، فأراد وجهاء القوم الانتقام منه ، وراحوا يفكرون بنوع العقوبة التي تناسب هذا المتعجرف المتكبر . . فكروا أن يقتلوه ، الا أن القتل عقوبة سهلة . أرادوا أن يربطوه بذيل الفرس ويجروه ، ثم عدلوا ، ثم قرروا ، أن يطلقوا سراحه . وليعش منبوذاً . وحرّموا على الجميع أن يتحدثوا إليه أو يختلط هو معهم . وعندما لم يعد بوسعه أن يعيش هكذا وحيداً ، أراد أن ينتحر ليتخلص من هذه الحياة ، فلم يستطع : (ليس له حياة ، والموت لايأتيه) وكانت تلك هي أقسى عقوبة نزلت به . أما دانكو ، فاننا نرى العكس تماماً . إذ قدم غوركي النموذج الأخر المقابل . نموذج دانكو ـ الشاب الجميل ، الشجاع ، الذي سلمه قومه زمام الأمور فيقودهم الى الامام وعندما تاه القوم وسط الغابة في ليل لانهاية له ، وسط مستنقعات هائلة تتحول أغصان الاشجار فيها الى أفاعي ، وما عاد لهم مخرج . حمّلوه مسؤولية فشله ، ووصفوه بالتافه ، وقرّروا قتله . لكن دانكو ، كان يحبهم ، ويريد لهم الخير ، فما كان منه ، إلا أن شق صدره ، وامتشق قلبه ، ورفعه عالياً . وسطع قلب دانكو ،سطوع الشمس ، وأضاء الغابة كلها بهذا المشعل ، وصرح بهم : لنتابع المسيرة ، حاملاً قلبه ـ المشعل مضيئاً به الطريق للناس . . . لقد أجاب غوركي في هذه الاسطورة ، عن السؤال التالي : أين تكمن سعادة الانسان ؟ وكان الجواب ، أن السعادة في التضحية وخدمة الشعب ، والعيش بين الناس ، وليس في الغطرسة ، والتكبر ، والابتعاد عن الناس .

* * *

في عام ١٨٩٩ صدرت رواية (فوما غوردييف) ، وقد أثارت اهتماماً واسعاً ، مثلما أثارت رواية ليف تولستوي (البعث) . حيث صور روسيا القيصرية وعالم الرأسمال فيها فاضحاً فيها البرجوازية ، وسلطة القرش .

وفي عام ١٩٠١ صدرت رواية " الاصدقاء الثلاثة " وفي هذه الرواية . وفي (فوما غوردييف) يكون غوركي قد انتقل من الرومانتيكية الثورية ، الى الواقعية ، متابعاً فيها مابدأه بالأولى ، وهو فضح الواقع الشنيع لروسيا القيصرية . ابطال الرواية الثلاثة : (ياكوف فيليمونوف) ـ انسان هادىء ، مسحوق ، ابن صاحب مطعم . و

(باشكا غراتشيف) محكوم عليه بالاشغال الشاقة . وثالثها (ايليا ليونيف) القادم من القرية . هؤلاء الثلاثة ، يحلمون بالانعتاق من الحياة الشنيعة ، القذرة ، والانطلاق الى حياة نظيفة جميلة . وتنضم اليهم (ماشا) ابنة الاسكافي . هذه الفتاة ، التي قدر لها ان تعيش حياة عابثة على الرغم من صغر سنها . وهكذا تمر الايام ، وتختلف مشارب الاصدقاء الثلاثة . فياكوف الطيب البسيط ، يبقى أبداً خائفاً من مظالم الحياة ومن المستقبل المجهول . وهو يحلم بالدير ، فيتحول إلى المطعم ، يقف خلف البوفيه في جو خانق من السكر والعربدة ، في مطعم أبيه . أما ايليا ليونيف ، الحالم بالحياة "النظيفة" يشق دربه الى "العلاء" و "النظافة" لكنه ممزق بين رغبتين متناقضتين : التعطش الى المال والغنى ، وحلمه بالعدالة . وهذا مستحيل . كمن يرغب في جمع الماء والنار . إلا أن الدرب الذي سلكه يؤدي به الى الجريمة . فقتل المرابي العجوز ، ولم يستطع أن يتخلص من عذاب الضمير . وهكذا ، يكتشف بنفسه أن الحياة ، في المجتمع الراقي ، يسيطر عليها الكذب ، والنفاق ، والرياء . وأن الحياة التي ينشدها ، الحياة الشريفة النظيفة ، غير موجودة . ويبقى (باشكا غراتشيف)الوحيد من بينهم الذي التحق بالمثقفين ، الثوريين . ويبقى منسجماً مع نفسه . والجدير بالذكر ، أن ملامح باشكا غراتشيف ، تشبه ملامح الكاتب نفسه . والذي طاف أرجاء روسيا بحثا عن عمل يعيش منه . ولم يسلك درب رفيقيه . بل اهتم بالثقافة ، واجتذبته حلقات الثوريين . وكانت تلك المرحلة التي بشرت بظهور بافل فلاسوف ، ـ بطل ـ رواية (الأم) . الرواية التي بشرت بالمرحلة الجديدة ، ليس في أدب غوركي ، بل وفي روسيا ، وفي كثير من انحاء العالم .

* * *

في المرحلة الجديدة ، في مطلع القرن العشرين ، ومع اشتداد الصراع الطبقي ، في روسيا القيصرية ، ونهوض الطبقة العاملة ، وبروز البروليتاريا بقوة على المسرح السياسي ، وفي فترة التحضير لثورة ١٩٠٥، أصدر غوركي روايته الشهيرة "الأم" . والتي لعبت دورا هاما . في نوعية الطبقة العاملة ، وتنويرها . ولن نتوقف هنا ، بالتفصيل عن دور هذه الرواية الرائدة . ليس في روسيا ، بل في العالم كله ، والتي كانت ، نقلة نوعية هامة على درب الابداع ، والنضال معاً . لأن القارىء عرف

الكثير عنها وعن بطلتها الأم ، بيلاجي نيلوفنا ، وابنها المناضل بافل فلاسوف . والتي كانت من أولى شذرات الواقعية الاشتراكية ، والتي أثارت جدلا كبيرا ، ومازالت . . وإن كان في هذه الايام ، يشتم رائحة التنكب إلى الماضي ، وبدء الهجوم على غوركي في موطنه من قبل الصهاينة ، فلا يعني ، أن هذا الكاتب ، المبدع ، المناضل ، قد فقد اهميته . وإن كانت بعض ابداعاته ، انعكاساً لمرحلة النهوض الاشتراكي ، فلا يعني انها كانت مرحلية مؤقته . وسنترك القارىء يتعرف بنفسه على بعض مقالات غوركي في الأدب والفن : كيف تعلمت الكتابة ، ومن ثم الواقعية الاشتراكية ، التي فهمهاالغير ، لا كمافهمها هو ، الذي يعد مؤسس هذه الطريقة الفنية .

كرتو ١٩٩٠

مالك صقور

كيف تعلمت الكتابة

في كل المدن ، حيث حالفني الحظ بالتحدث اليكم ، سألني الكثيرون شفهياً وكتابياً : كيف تعلمت الكتابة ؟ وجه إلي هذا السؤال من أقاصي جمهوريات الاتحاد السوفياتي ، وخاصة الشباب المبتدئون بالكتابة . واقترح علي الكثيرون تأليف" كتاب عن كيفية تأليف القصة" . أو " تأليف كتاب الادب" أو" النظريات الادبية" . كتاباً كهذا ، لااستطيع كتابته ، حتى ولا أجرؤ على ذلك . إلا أن هناك كتباً مشابهة ، علماً انها ليست جيدة . ولكن مع ذلك ، لاتخلو من الفائدة .

ومن الضروري للمبتدئين بالكتابة ، أن يعرفوا تاريخ الادب ، وكتاب "كليتويال" تاريخ الادب" مفيد لهذا الغرض . فهذا الكتاب يعرض تطور الابداع "الشعبي" الشفهي ، و"الادبي الكتابي" . يجب معرفة تاريخ تطور كل عمل من الاعمال ، فلو أن كل عامل عرف تطور العمل في الفابركا ، أو المصنع ، لكان عمل العمال أفضل بكثير مما هو عليه . إذ أنهم يدركون بعمق المعنى التاريخي والفني لمهنتهم . من الضروري أيضاً ، معرفة تاريخ الادب الاجنبي ، لأن الابداع الأدبي ، من حيث الجوهر ، هو واحد في كل بلدان العالم ، وعند كل الشعوب . والامر هنا لايتعلق بالعلاقات الشكلية والخارجية ، ولا ببوشكين الذي أعطى غوغل موضوع روايته "النفوس الميتة" ، و"رسائل نادي بيكفيكسكي" للكاتب ديكنز" ، بل المهم أن ندرك تماماً ، أنه منذ القديم ضفرت في كل مكان ، وتضفر ، الانشوطات" من أجل الاحاطة بالروح البشرية" ، وأنه دائماً ، في كل مكان ، يوجد أناس ، وقفوا ويقفون اعمالهم وأهدافهم لتحرير الانسان من ربقة الخرافات والاباطيل ، والاوهام . من المهم ، معرفة أنه في كل مكان أرادوا ، ويريدون طمأنة الانسان . وأنه دائماً وفي كل مكان ، وجد متمردون ، سعوا ويسعون من أجل قلب الواقع الشنيع القذر . وفي

النهاية ، من المهم جداً معرفة أن هؤلاء المتمردين أضاؤواالطريق للناس ، ودفعوهم عليها إلى الامام . وناهضوا ناشري الدعايات المطمئنة ، المسكنة للواقع المزري ، الذي خلقتهاا لطبقة الحاكمةالمسيطرة ،والمجتمع البرجوازي الذي نشر وينشر الأوبئة المعدية في صفوف الشعب العامل . كالجشع ، والكسل ، والحقد والكراهية للعمل .

إن تاريخ الابداع والعمل الانسانيين ، أهم بكثير من تاريخ الانسان ذاته . فالانسان يعيش حتى المئة ، ومن ثم يموت ، بينما تعيش أعماله قروناً . فالنجاحات الاسطورية للعلم ، وسرعة تطوره تفسر معرفة العالم لتاريخ تطور اختصاصه . فهنا وهناك تلعب المراقبة والمقارنة ، والبحث الدور الرئيس . فالفنان كالعالم ، يجب أن يمتلك حصب الخيال ، و" الحدس" . إن خصب الخيال ، والحدس ، يكملان الحلقات الناقصة في سلسلة الحقائق ، وتساعد العالم في ابداع "الفرضيات العلمية" والنظريات ، التي يتحكم بها العقل . وهي بدورها ، تدرس قوة الطبيعةوظواهرها ، وبالتدريج تخضعها للعقل . ولإرادة الانسان ، وتصنع الحضارة ، التي هي حضارتنا ، وإرادتنا ، المبدعةبعقلنا ، والتي هي "الطبيعة الثانية" .

كل هذا نؤكده بحقيقتين : لقد اكتشف العالم العظيم مندلييف على أساس دراسات العناصر المعروفة : الرصاص ، والكبريت ، والزئبق . . الخ ، "جدول تصنيف العناصر" ، ولقد برهن هذا الجدول أن في الطبيعة الكثير من العناصر الأخرى ، التي لم يكتشفها أحد بعد . وكذلك ، بين مندلييف صفات هذه العناصر ، ووزنها النوعي ، التي لم يعرفها أحد من قبله .

الحقيقة الثانية : هنري بلزاك ، أحدأعظم روائيي فرنسا . فمن خلال مراقبته لسكولوجيا الناس ، كتب في إحدى رواياته ، أنه في جسم الانسان سوائل قوية ، لايعرفها العلم ، والتي تبدو واضحة من السمات النفسية والفزيولوجية للانسان . وبعد انصرام بضع عشرات من السنين ، اكتشف العلم ، أن جسم الانسان يحتوي على غدد غامضة تصنع هذه السوائل "الهرمونات" . وقام العلم بدراسات هامة على"الافرازات الداخلية". مطابقات كهذه ، بين العمل الابداعي للعلماء ، والادباء ، ليست قليلة ،فلقد كان غوته ولومونوسوف شاعرين وعالمين في الوقت نفسه ، وكذلك الروائي ستريندبرغ الذي كان أول من تنبأ في روايته"الكابتن كول"عن

امكانية استخلاص الآزوت من الهواء .

إن فن الابداع الادبي الذي هو فن خلق الشخصيات و"النماذج" يتطلب خصب الخيال ، والحدس ، و"الخلق" . فالاديب الذي يصور تاجراً يعرفه ، أو موظفاً ، أو عاملاً فإنه يرسم صورةناجحة بهذا القدر أو ذاك لهذا الشخص بالذات . ولكن الصورة ، تبقى صورة ليس إلا ، فبتجريده لهامن المعاني الاجتماعيةوالتربوية ، فإنها لاتوسع مداركنا ، ولا وعيناحول الانسان وحول الحياة .

ولكن إذا استطاع الكاتب ، أن يكبّر من كل عشرين ـ خمسين أو مئة تاجرٍ وعاملٍ أوموظف الصفات الطبقية لهذه الشخصيات : العادات ، الأذواق ، الحركات ، العقائد ، والأساليب الخ ، بحيث يكبّر ويجمع كل هذه الصفات في شخص تاجر أو عامل أو موظف ، فإن الكاتب ، بهذه الطريقة يكون قد صنع "النموذج" ـ وهذا هو الفن بعينه .

إن رحابة المراقبة ، وغنى التجربة الحياتية تسلح الفنان بالقوة التي تحول علاقاته الخاصة ، وذاتيته الى الحقيقة . كان بلزاك ذاتياً مناصراً للمجتمع البرجوازي ، لكنه صوّر في رواياته شناعة ، ورذيلة ، وقبح هذا المجتمع ، بصراحة لاترحم . وهنالك أمثلة كثيرة حيث يكون الفنان مؤرخاً موضوعياً لطبقته تساوي أهمية العالم الطبيعي ، الذي يرصد ظروف ومعيشة الحيوانات ، وأسباب التكاثر والتناسل ، والموت ، ويصوّر من خلال اللوحات ، صراعها من أجل الحياة . لقد طورت غريزة الدفاع عن النفس من أجل الحياة في الإنسان قوتين ابداعيتين هائلتين : الوعي ، والتخيل ، فالوعي ـ هو قوة المراقبة ، والمقارنة ، ودراسة ظواهر الحياة ووقائع الحياة الاجتماعية ؛ وخلاصة الكلام : الوعي ـ هو تفكير ـ والتخييل أيضاً ، في جوهره ، هو تفكير عن العالم ، لكن التخييل بطريقة الصور "الفنيّة" ؛ ويمكن القول ، إن التخييل ـ هو موهبة تعطي ظواهر الطبيعة العفوية والأشياء ، صفات إنسانية ، ومشاعر ، وحتى عزيمة .

نقرأ ونسمع : " تبكي الريح " و " تئن " ؛ " يشع القمر متأملاً " ، " نتش النهر الشجيرات القديمة " ، " عبست الغابة " ، " أرادت الموجة أن تزحزح الصخرة ، فقطبت حاجبيها تحت ضرباتها ، وصمدت ولم تتزحزح " ، " الكرسي زعق كالعلجوم " ، " تعرق الزجاج " مع أنه ليس للزجاج غدة تفرز العرق .

كل هذا ، يجعل ظواهر الطبيعة واضحة ، مفسرة بالنسبة إلينا ، أكثر . وتسمى (انتروبومورفيزم) (antnropomorphisme) من الكلمة الاغريقية ، (انتربوس - انسان ؛ ومورفة - الشكل - الصورة) . نقصد هنا ، أن الانسان يخلع على كل الأشياء ، صفاته الإنسانية . يتخيل ، يصّور ، ويحملها معه اينما حل ، وأنىّ كان - كل مايصنعه بعمله وكدحه ، وكل مايخترعه بعقله . وهناك أناس يعتقدون ، أن (الانتروبومورفيزم) ، مُضر في الفن ، ولايناسبه ، ولكن هؤلاء بالذات يقولون : "قرص البرد الأذنين" ، "ابتسمت الشمس" ، "جاء أيار" ، "الجو رذيل" مع أن ظواهر الطبيعة ، لاتخضع لتقييماتنا الاخلاقية . . .

. . . إلا أننا نرى ، أن الانسان الذي يمتلك موهبة التخييل ، قد تخيل أبطالاً ، لاوجود لهم . امثال ، هرقل ، والفلاح الروسي الجبار ايليا مورموتس ، تخيلوا أبطالاً ، وجسدوهم في شخص فلاح ، أو تاجر الخ ، ومن هذا التخييل حصلنا على "النموذج الأدبي" . على سبيل المثال : نموذج فاوست وهاملت ودون كيشوت ، وهكذا أيضاً كتب تولستوي " قتيل الرب " ، ونماذج دوستويفسكي المختلفين ، ونموذج (ابلوموف) غونتشاروف الخ . فهؤلاء الناس ، كيفما كانوا في الحياة ، صغاراً أم كباراً ، منحطين اخلاقياً ، أو يتمتعون بالصفات الانسانية الرفيعة ، فإن الفنانين مبدعي الكلمة ، خلقوا منهم " نماذج " ذات قيمة معنوية ، فكل كذاب ونصاب نسميه خليستكوف ، وكل متزلف نسميه مولتشالن وكل منافق نسميه طرطوف ، وكل غيور نسميه عطيل الخ . .

إن الاتجاهين الاساسيين ، أو الطريقتين الاساسيتين ، في الادب هما : الرومانتيكية والواقعية . تتسم الواقعية بالحقيقة ، وبعدم تزيين الناس ، وزخرفة ظروف حياتهم . أما الرومانتيكية ، فقد وضعوا لها صيغاً عديدة ، وحتى الان ، لم توضع الصيغة الدقيقة والمطلقة ، التي يمكن أن يجمع عليها مؤرخو الأدب جميعاً ولكن من الضروري ، تميز جانبين في الرومانتيكية : الرومانتيكية السلبية والايجابية : فالرومانتيكية السلبية تحاول ، إما أن تهادن بين الانسان والواقع أو تزّين الواقع له ، وتنسى الواقع متجهة إلى الافكار غير المثمرة " القدر المحتوم المميت " ، " الحب والموت " ، أو تتجه إلى الالغاز . وأما الرومانتيكية الايجابية ، فتسعى إلى تقوية إرادة

الانسان في الحياة ، وتوقظ فيه روح التمرد ضد واقعه ، وضد كل ظلم .

ولكن بالنسبة إلى الكتاب الكلاسيكين ، امثال ، بلزاك وتورغينيف ، وتولستوي ، وغوغول ، وليسكوف وتشيخوف فمن الصعب ، الحكم عليهم بدقة تامة ، هل هم رومانتيكيون ، أم هل هم واقعيون ؟ حتى لكأن الواقعية ، والرومانتيكية تتحدان في الكتّاب العظماء . فبلزاك واقعي ، لكنه كتب روايات ، كرواية " الجلد المسحور " التي هي بعيدة جداً عن الواقعية ، وكتب تورغنيف أيضاً اشياء بروح رومانتيكية . كذلك كتابنا العظماء من غوغول وحتى تشيخوف وبونين . ان تمازج الواقعية والرومانتيكية سمة من سمات أدبنا ، وهي تعطيه الأصالة ، والقوة التي تؤثر بعمق في الأدب العالمي كله .

إن العلاقة المتبادلة بين الرومانتيكية والواقعية ستكون أوضح لكم أيها الرفاق ، إذا ركزتم انتباهكم على السؤال التالي : " لماذا تظهر الرغبة في الكتابة ؟ " عن هذا السؤال لدينا جوابان ، عن احدهما ، تجيب إحدى قارئاتي التي تراسلني ، وهي فتاة عمرها خمسة عشر عاماً ، ابنة عامل ، كتبت لي في احدى رسائلها تقول : "عمري خمسة عشر عاماً ، لكن في مثل هذه السن المبكرة ، ظهرت عندي موهبة الكتابة ، وسبب ذلك ، الحياة الفقيرة الشاقة " .

كان من الأفضل ، بالتأكيد ، لوقالت ، ظهرت عندي " رغبة في الكتابة "لا" موهبة الكتابة " من أجل تزيين " تخيلها " ، وتغنيه "بالحياة الفقيرة التعسة" .

وهنا يطرح سؤال نفسه : ماذا يمكن أن تكتب ، وأنت تعيش "الفقر المدقع" ؟

نجيب عن هذا السؤال ، شعوب البوفولجا وسيبيريا ، فهؤلاء ، لم يمتلكوا أدباً مكتوباً ، حتى الأمس القريب ولكن منذ بضعة قرون وحتى أيامنا هذه ، أغنوا وزينوا "حيواتهم الفقيرة الشاقة" في الغابات الموحشة ، والمستنقعات ، وفي سهوب الشمال والشرق بالأغاني والحكايات والاساطير عن الابطال وعن الآلهة ، وكان ذلك "ابداعاً دينياً" ، ولكن في جوهره ، كان ابداعاً أدبياً .

فإن كانت الموهبة ، قد ظهرت فعلاً ،عند مراسلتي - فإنني أتمنى لها من الأعماق النجاح - وإنه لمن المستحيل ، أن تكتب أشياء "رومانتيكية" بل ستكتب لإغناء "الحياة الفقيرة المذلة" بتخيلات جميلة ، وستصف الناس بأفضل مما هم عليه .

لقد كتب غوغل "كيف تشاجر ايفان ايفانوفيتش مع ايفان نيكيفورفيتش" و"الإقطاعيين" و"النفوس الميتة" . وكتب "تاراس بوليا" أيضاً . في قصصه الثلاث الأولى ، صوّر الناس ونفوسهم الميتة" ، وكان تصويره ـ حقيقة ساطعة . فلقد عاش مثل هؤلاء الناس ، ويعيشون حتى يومنا هذا فبتصوير غوغل هذا ، فإنه كتب كـ"واقعي" . وفي قصته "تاراس بوليا" ، صوّر القوزاقيين ، الفرسان ، الأقوياء ، شديدي البأس . وعموماً قوزاق كهؤلاء ، لم يكونوا يوماً ، وقصة غوغل عنهم جميلة وليست حقيقية . وغوغل هنا ، رومانتيكي ، وأغلب الظن ، أنه رومانتيكي لأنه تعب من مراقبة "الحياة الفقيرة التعسة الشاقة" للنفوس الميتة .

أيفهم من مجمل ما قلت أعلاه ، أني أؤكد ضرورة الرومانتيكية في الأدب ؟ نعم ، وأدافع عن ذلك ، لكن في ظروف (شروط) جد إضافية جوهرية "رومانتيكية" .

مراسل آخر لي ، عامل ، عمره سبعة عشر عاماً ، كتب إلي صارخاً : "لدي الكثير من الانطباعات وليس بوسعي أن لا أكتب" ، في هذه الحالة ، تفسر رغبة الكتابة ليس بـ"فقر" الحياة ،بل بغناها ،الحياة المملة المشحونة بالانطباعات التي تستصرخ النداء الداخلي بالكتابة عنها . إن الأكثرية الساحقة من مراسلي الشباب يريدون الكتابة . لأن انطباعاتهم غنية وكثيرة "ولايستطيعون السكوت"عما يرون ، ومما يعانون . ومن المحتمل أن يكون بينهم عدد غير قليل "واقعيين" ، ولكنني ، أعتقد ، أن واقعيتهم ستحمل بعض سمات الرومانتيكية التي لامناص منها كقانون في مرحلة النهوض الروحي ، ونحن قلقون على هذا النهوض .

وهكذا ، على سؤال ،لماذا صرت أكتب ؟ـ أجيب : من جراء الضغط العنيف علي من " الحياة الفقيرة الصعبة" ، ولأنه ، تكونت لدي انطباعات كثيرة ، حيث " لم استطع إلا أن أكتب " ، والسبب الأوّل ، جعلني أحاول أن أحمل إلى الحياة "الفقيرة" أفكاراً ، و "تخيلات" مثل "حكاية عن الصقر والافعى" و "اسطورة القلب المشتعل" و " طائر النورس " . وبدافع السبب الثاني ، صرت اكتب قصصاً ذات طابع "واقعي" ـ "ست وعشرون وواحدة" ، "زوجات أرلوف " ، "الشقي" .

وعن قضايا "الرومانتيكية" في أدبنا ، من الضروري ، معرفة التالي : قبل

تشيخوف وبونين ، أحب (أدبنا النبيل) الفلاح ، واستطاع تصويره بشكل رائع ، على أنه ذلك الانسان الوديع الدمث ، الصبور المحب " للحقيقة المسيحية " التي لاوجود لها في الواقع ، والتي يحلم بها الفلاحون طول حياتهم . أمثال كالينتش لـ (تورغينف) من قصته "الجوقة وكاليتش " وبلاتون كاراتايف ، من الحرب والسلم لـ (تولستوي) . ولقد بدؤوا بوصف الفلاح الوديع ، الدمث ، الصبور ، والحالم أيضاً " بالحقيقة السماوية " قبل تغيير نظام الرق بعشرين عاماً . مع أنه ، في اثناء عهد الرق والعبودية ، دفعت القرية المستعبدة ، من وسطها الجاهل منظمين صناعيين : آل كوكريف ، آل غوبونين ، آل موروزف ، آل كولتشين ، آل جورافليف الخ . . وبالإضافة إلى هذا ، كثيراً ماذكرت الصحافة الشخصية الاسطورية العظيمة ، التي خرجت من " الفلاحين" ــ لمونوسوف . الشاعر وأحد أعظم العلماء .

كتب ليف تولستوي عام ١٨٥٢ قصة حزينة جداً "صباح الاقطاعي" تحدث فيها ببراعة ، كيف أن العبيد لا يثقون بالسيد الطيب الليبرالي . في عام ١٨٦٢ بدأ تولستوي بتربية أولاد الفلاحين ، وهو يعارض" التقدم" والعلم ، ويطالب الناس : تعلموا العيش الهنيء من الفلاح ، أما في السبعينات فقد شرع بكتابة قصص "للشعب" . وصور في تلك القصص حب الفلاحين للمسيح ، والفلاحين الرومانتيكيين ، ويُعلِّم أن أفضل وأمتع حياة هي في القرية . وأفضل عمل هو عمل الفلاحين "في الارض" وفي قصته "ما هي حاجة الانسان من الارض" ــ يجيب تولستوي : إن الانسان بحاجة إلى مترين فقط ــ موضع قبره .

ولقد فرزت الحياة من هؤلاءالفلاحين الودعاء محبي المسيح بناة للاشكال الجديدة للحياة الاقتصادية ، وبرجوازيين ، موهوبين كباراً وصغاراً ، ووحوشاً مفترسة ، مثل آل رازوفايف وكولوبايف الذين صورهم سالتيكوف ــ شيدرين ، وغليب أوسبينسكي ، والى جانب الوحوش المفترسة ــ صوروا المتمردين والثوار . ولكن كل هؤلاء الناس لم يلحظهم الأدب النبيل . غانشاروف في روايته "ابلوموف" التي تعد من أفضل روايات أدبنا ـ قابل الكسلان الروسي بالاقطاعي الغبي الالماني . ولكن لايوجد فلاح واحد من الفلاحين الروس " السابقين " الذين عاش بينهم غانشاروف ، من الذين قاموا بإدارة اقتصاد البلاد . وإن صادف ، وصوّر كتاب

النبلاء (الثوري) ، فإما أن يصورروه أجنبياً ـ بلغارياً أو عاقاً متمرداً حسب كلمات رودين . ولقد بقي الانسان الروسي النشيط ذو الارادة كبطل العصر ، خارج نطاق الأدب ، خارج " مجال حقل رؤية" الادباء ، مع أنه صّرح مذكراً بنفسه مافيه الكفاية ، ويمكن ضرب الكثير من الامثلة والبراهين على أن الرومانتيكية الداعية للحياة ، وللقيام بالمآثر ، كانت غريبة على الأدب الروسي النبيل . ولم يستطع تقديم بديل عن " قطاع الطرق " لشللر ، ولكن " النفوس الميتة " صّورت ذلك بشكل منقطع النظير ، و " التابوت الحي" و "بيت الموتى" و "الجثث الحية" و " ثلاث ميتات " والكثير من الميتات الأخرى . وكأن الجريمة والعقاب " رواية دوستويفسكي ، كتبت لتقابل " قطاع الطرق " لشللر . أما مسرحيات دوستويفسكي ، فإنها الأكثر موهبة ، والاكثر حقداً من بين العديد من المحاولات التي انتقصت من الحركة الثورية في السبعينات . كما كانت الرومانتيكية الثورية ـ الاجتماعية ، غريبة أيضاً عن أدب المثقفين البرجوازيين الصغار أيضاً فالمثقف البرجوازي كان مشغولاً جداً بمصيره الخاص ، وبالبحث عن دوره في دراما الحياة . في اثنائها ، عاش المثقف البرجوازي بين "المطرقة والسندان" ، المطرقة ـ الطبقة الحاكمة المستبدة ؛ السندان ـ الشعب .

إن قصص سيبتسوف "الزمن الصعب" وأوسيبوفيتش نوفودفورسكي "ليس طاووساً ولا غراباً" ـ إنها كتابات قوية ، صّورت الوضع التراجيدي لأذكياء الناس الذين لم يمتلكوا مسنداً قوياً في الحياة ، ولم يعيشوا " طواويس أو غرباناً" .

وهكذا ، فالكتّاب ، الذين يطلق عليهم كتاب شعبيون زلاتوفراتسكي ، وزاسوديمسكي ، فولوغدين ، ليفتيوف ، نيفدوف ، نيقولاي أوسبينسكي وكثيرون غيرهم ، عملوا جاهدين في ظل (الأدب النبيل) لتتزين القرية والفلاح ، الذي كان شعبياً واشتراكياً بطبيعته . والذي لايعرف حقيقة غير حقيقة " " الجماعة " و "السلام" والحياة الجماعية المشتركة ، وكان أول من أوحى بهذه النظرة الى الفلاحين هو النبيل الرائع الموهوب غيرتسن . وقد تابع دعايته فيمايلوفسكي الذي ابتكر "الحقيقة " و " العدالة " . ان تأثير هذه المجموعة من الادباء كان ضعيفاً وزمنياً قصيراً . و " رومانتيكيتهم" تميزت عن رومانتيكية النبلاء بضعف المو هبة ، وبالحالمين ـ الفلاحين ميناي وميتياي ـ نسخ سيئة عن (بروتريهات) بوليكوشكي وكالينتش

وكاراتايف ، وفلاحين آخرين مشابهين .

التزم بهذه المجموعة أديبان لكنهما امتازا بحدة البصر والموهبة ،أكثر من الجميع ، حتى من الشعبيين ، وهما أديبان كبيران : مامين سيبيرياك ، وغليب أوسبينسكي . فهما أول من شعرا ولاحظا الفرق بين القرية والمدينة ، بين العامل والفلاح . وخاصة ، أن "أوسبينسكي" مؤلف كتابين عظيمين : "اخلاق الشارع الضائعة" و"سلطة الارض" . فالقيمة الاجتماعية لهذين الكتابين ، ما زالت حتى يومنا هذا . وعموماً فإن قصص أوسينسكي لم تفقد معناها التربوي ، وأدب الشباب ، يمكن ان يتعلم على هذا الكاتب كيفية المراقبة ، واتساع معارف الواقع . . .

. . . من البديهي ، أني أعرف تماماً ، أن الطريق إلى الحرية وعرة جداً ، ولم يحن الوقت بعد ، لشرب الشاي باطمئنان ، مع الاصدقاء ومع الصبايا الحسان ، أو الجلوس أمام المرآة (ليتمتع المرء بالنظر إلى نفسه) كما يفعل كثير من الشباب في هذه الايام .

ففي الوقت ، الذي يسري في أوربا انحطاط الانسان ، تتطور عندنا في جماهير الكادحين ، الثقة بالنفس ، وفي قوة الحياة الجماعية . يجب أن تعرفوا أيها الشباب ، أن الثقة بالنفس تظهر دائماً ، في عملية إزاحة المعوقات من على الطريق ، وغذ السير نحو الأفضل . هذه الثقة هي القوة الابداعية الحقيقية .

لا أتذكر ، أنني في شبابي اشتكيت من الحياة . فالناس الذين عشت بينهم ، أحبوا جداً ، أن يتذمروا من الحياة ، لكنني لاحظت ، أنهم يفعلون هذا ، من خبثهم ، ومن أجل أن يحفظوا بشكواهم وتذمرهم ، عدم رغبتهم بمساعدة بعضهم بعضاً وأنا حاولت عدم الاقتداء بهم . ولكن ، تأكدت فيما بعد ، أن الناس الذين يشتكون من الحياة ، هم الذين لايستطيعون المقاومة ، الذين ليس لديهم رغبة في العمل . وعموماً هم أولئك الذين هوايتهم في أن يعيشوا " الحياة السهلة " على حساب الأخرين .

لقد عانيت الرعب كثيراً أمام الحياة ، والآن اسمي هذا الرعب ـ الرعب الاعمى . لقد عشت حياة قاسية جداً ، ورأيت منذ طفولتي مصاعب لاتوصف ، وشعرت بحقد الناس الذي لم أفهمه ، وكنت عرضةً لاضطهاد الاخرين من غير

رحمة ، وفهمت مبكراً ، أن الناس الذين يعدّون أنفسهم " قريبين من الرب " المتدينين ، ظلموا باسم الدين العمال والبائسين . عموماً ، رأيت بأم عيني الحياة الشنيعة القذرة ، والتي لاترونها أنتم اليوم ، بالاضافة إلى ذلك ، لقد رأيت الحياة بأشكالها القبيحة . الآن ، ترون البرجوازية ، أمامكم ، كيف ذعرت من الثورة ، وكيف فقدت الثقة بنفسها ، وبحقها في العيش كما كانت ، وترونها كيف تتذبذب كما هي طبيعتها . أما أنا فقد رأيت البرجوازية ، عندما كانت في أوج عزها وكانت واثقة من حياتها السعيدة ، وأن هذه الحياة السعيدة الهادئة مستمرة إلى الأبد .

في تلك الآونة ، قرأت روايات اجنبية مترجمة ، لكتّاب عظماء ، مثل ، ديكنز وبلزاك ، وكذلك روايات انيسفورت التاريحية ، وبولفرليتون ودوماس . حدثتني هذه الكتب عن أناس أقوياء الارادة ، ذوي طباع صلبة ، قرأت عن أناس يعيشون أفراحاً أخرى ، ويتألمون من اشياء أخرى.. أما أنا فقد عاش حولي أناس قذرون جشعون ، حاسدون تشاجروا ، وشكا بعضهم بعضاً ، إذا ابن الجيران كسر رجل دجاجتهم ، أو كسر زجاج نافذتهم ، أو لأن الفطائر احترقت ، أو لأن (اللحمة) في الشوربة سيئة ، أو لأن الحليب قد فسد . كان بوسعهم أن يقضوا ساعات بكاملها ، يتناقشون ، في أن السّمان زاد قرشاً واحداً على سعر كيلو السكر . وأن تاجر الفاتورة رفع ثمن متر (الشيت) قرشاً . وكانوا إذا ماحصل مكروه للجيران ، فانهم يفرحون ، ويشمتون ، لكنهم يخفون ذلك . ويتظاهرون بأنهم يشاركونهم في آلامهم . لقد رأيت جيداً ، أن القرش الواحد هو الشغل الشاغل للبرجوازية ، ولهؤلاء اللئام ، محدودي الأفقّ . وأن القرش يُشعل في الناس الحقد الأسود القذر ، فمضمون حياة الناس الذين عشت بينهم كان : الأواني ، السماورات ، الجزر ، الدجاج ، المأكولات ، تاريخ الولادات ، تاريخ الوفيات ، والنهم والجشع ، والتخمة حتى الموت ـ هذا هو مضمون حياة الناس الذين عشت بينهم . إن هذه الحياة القذرة الشنيعة ، المخدرة ، المكدّرة ، المضجرة ، أيقظت فيَّ رغبة (الشقاوة) كي أوقظ نفسي . وعن الضجر كتب لي أحد مراسلي ، منذ فترة قصيرة ، عمره تسعة عشر عاماً : «إني أكره هذا الضجر المقيت المملوء بزعيق الكلاب» .

وهكذا ، ذات مرة ، ومن جراء الضجر القاتل (تشاقيت) . صعدت السطح ليلاً ، وسددت مدخنة المدفأة ، بالأوساخ والخرق . وقذفت بالشوربة ملحاً ، ونفخت من خلال اسطوانة ورقية غباراً في ساعة الحائط . وعموماً ، لقد فعلت كثيراًمن الافعال ، التي تُسمى (شيطنة) . فعلت ذلك ، بسبب رغبة تيقظت في داخلي كي أشعر بنفسي أني انسان حّي . وفي حينها ، لم أعرف الطرق التي بواسطتها يمكن أن أتأكد أنني حي . خيل إلي ، أني فقدت طريقي في الغابة ، وسط عاصفة هوجاء ، في مستنقع من الوحل ، حيث تغطس الرجل فيه حتى الركبة .

أتذكر هذه الحادثة : ذات مرة ، ساقوا معتقلين ، في الشارع ، الذي كنت أعيش فيه ، من السجن إلى الباخرةفي نهر الفولغا ، ومنه إلى سيبيريا . فلقد شدني هؤلاء القوم المغبرو الوجوه . ومن المحتمل اني حسدتهم ، لأن بعضهم كان يسير تحت الحراسة المشددة وبعضهم الآخر ، كان مقيداً بالاغلال . ولكنهم مع ذلك ذاهبون إلى مكان ما في الوقت الذي أنا مضطر للعيش فيه بالضبط ـ كالجرذ في القبو ـ في مطبخ قذر جداً . وذات مرة ، ساقوا مجموعة كبيرة أخرى ، إلى الاعمال الشاقة ، مكبلين بالاصفاد . وفي المؤخرة قرب الجدار سار اثنان منهم ، مربوطين ببعضهما ، بأيديهما وأرجلهما . كان أحدهما كبير الجثة ، بحاجبين أسودين وعينين كعيني الفرس . وندبة حمراء عميقة في الجبين من أثر جرح كبير ، وأذن مشرومة ، بكلمة ، كان منظره مرعباً . ورأيتني وأنا مشدوه بالنظر إليه أخذت أقتفي اثره . وفجأة ناداني بصوت عال مرح : إيه ، أيها الصبي ، تعال وتجول معنا ! فكأنه بهذه الكلمات ، قد أمسك بي من يدي .

ومن فوري هرعت إليه ، ولكن الشرطي دفعني عنه شاتماً ولو ان الشرطي لم يدفعني كي أبتعد ، لكنت ذهبت معه ـ وكأنني في الحلم ـ . أجل ، لذهبت مع هذا الرجل المرعب ، لأنه رجل غير عادي ، ولايشبه الناس الذين أعرفهم . ليكن مرعباً ، وليكن مقيداًبالاغلال ، ولكنه ذاهب إلى حياة أخرى . لقد تذكرت الرجل طويلاً ، وتذكرت صوته المرح الطيب . فقامته الطويلةالفارعة ، ارتبطت بذهني وولّدت عندي انطباعات قوية : وقع بين يدي كتاب ، كان سميكاً . وبدايته ، كانت صعبة . قرأته ولم أفهم منه شيئاً ،سوى ، حادثة في إحدى صفحاته ، عن الملك الذي اقترح على

الرامي البسيط ، أن يمنحه لقب (نبيل) ولكن الرامي أجاب شعراً :

آخ ، دعني أعيش ، واتركني أنهي حياتي بحرية
كان أبي فلاحاً بسيطاً ـ وابني سيكون فلاحاً
والمجد سيغدو أكبر ، عندمايكون أخونا طيباً
لأنه سيكون مخلصاً في العمل ، أكثر من السيد النبيل .

كتبت هذه الأبيات الصعبة في دفتري ، ولقد ساعدتني طويلاً ، وكانت بالنسبة إلي ، بمنزلة العكاز للرجل المسن . وكانت الدرع الذي حماني من الانزلاق نحو تعاليم البرجوازية الرديئة ـ "السادة النبلاء" . وعلى الأرجح ، انه في حياة الكثيرين من الشباب ، تصادف كلمات تغني خيالهم الفني ، وتكون بمنزلة القوة الدافعة ، كما الريح المؤاتية توجّه الشراع . بعد عشر سنوات ، عرفت أن هذه الأسطر من "كوميديا الرامي المرح ، لجورج غرين عن روبين غوديه" ، وقد كتب الكوميديا في القرن السادس عشر ، سلف شكسبير روبرت غرين . لقد فرحت جداً عندما عرفت ذلك ، وأحببت الأدب أكثر الأدب ، الذي هو الصديق الأمين للناس ومساعدهم في الحياة الصعبة منذ أقدم الأزمنة .

أجل أيها الرفاق ! لقد عانيت كثيراً الرعب ، عانيت هذه الحياة القاسية الرذيلة ووصل بي الأمر ، إلى أني حاولت الانتحار ، ولكن ، بعد مضي أعوام كثيرة ، عندما أتذكر تلك السخافة ، احتقر نفسي ، وأشعر بالعار يحرقني .

لقد تخلصت من هذا الرعب ، بعدما فهمت أن الناس ليسوا أشراراً بهذا القدر ، كهؤلاء الجهلة ، وأن الذي يخيفني ليسوا هم وليست ، الحياة ، بل كان مصدر خوفي هو جهلي وعربي ، ووقوفي أعزل دون سلاح أمام هذه الحياة . أجل هكذا ، بالضبط ـ واعتقد أنه يجب عليكم ، أنتم خاصة ، أن تفكروا بذلك . لأن الرعب ، والشكوى ، والألم ، نجدها بشكل من الأشكال في الوسط الذي تعيشونه . وذلك كنتيجة لإحساس المتذمرين مقدمي الشكاوي وعزلتهم أمام الحياة ، وعدم ثقتهم بقدرتهم على المقاومة داخلياً وخارجياً ، وضد كل ما يضطهد الإنسان .

يجب عليكم أن تعرفوا ، أن أمثالي من الناس ، كانوا وحيدين ، ومنبوذين من قبل المجتمع ،أما أنتم ، فإنكم أولاد الطبقة الكادحة ، التي أدركت قوتها ، وامتلكت

السلطة ، سلطة العمال والفلاحين ، السلطة التي يجب أن تساعدكم على تطوير مواهبكم الى الكمال . وهذا مابدأت بفعله بالتدريج . وكان بوسعها أن تنجز أكثر ، وبنجاح لولا عرقلة البرجوازية لها ، عدوّها وعدوكم الدموي .

عليكم أن تثقوا بأنفسكم ، وبقوتكم ، وهذه الثقة تكتمل بكسح المعوقات ، وبتربية الإرادة ، وذلك "بالتمرين والتدريب" . يجب أن تتعلموا كيف تنتصرون على أنفسكم ، ويجب أن تتعلموا كيف تهزمون في أنفسكم موروث الماضي الكريه . وإلا فكيف ستتخلصون من "العالم القديم المهترئ" . فهذه الأغنية لاتستأهل أن تغنى ، إذا لم تتوافر القوة ، والرغبة ، لتنفيذ ما تعلّمه هذه الأغنية . فالنصر الصغير الذي يحرزه الإنسان على نفسه ، يجعله قوياً بعض الشيء . إنكم تعرفون ، أن الإنسان الذي يمارس الرياضة يصبح قوياً ، وصحيح الجسم ،ورشيقاً ، وهكذا ، يجب تمرين العقل والإرادة وترويضهما .

هاكم حادثة ، تبرهن على أروع ما توصلت إليه هذه التمارين . منذ فترة ليست بعيدة ، عرضت امرأة في برلين ، مايلي : أمسكت هذه المرأة في كل يد قلمين وثبتت بين أسنانها القلم الخامس ، وفي الوقت نفسه ، استطاعت أن تكتب خمس كلمات مختلفة ، بخمس لغات أجنبية . فللوهلة الأولى ، يخيل للمرء أن هذا مستحيل ، لالأن هذا صعب فيزيولوجياً ، بل لأن ذلك يتطلب عقلاً ليس عادياً ، غير أن الأمر كان حقيقة واقعة . ومن جهة ثانية ، إن هذه الحقيقة ، تبرهن في جوهرها ، كيف أن الإنسان يهدر مواهبه الرائعة في المجتمع البرجوازي الفوضوي . فلكي يجذب الإنسان الانتباه إليه ، يجب ان يمشي على رأسه في الشارع ، أو ، يجب القيام بالألعاب "البهلوانية" التافهة . وكل ذلك لتسلية الناس المتشبعين ضجراً .

يجب عليكم ، أيها الشباب ، أن تعرفوا ، كل ماهو قيّم ، ومفيد ، ورائع ، وكل ماانجزته البشرية في مجال العلم ، والفن ، والتكنولوجيا ،ـ كل ماصنعه الأفراد في ظروف صعبة ، لاانسانية ، في "المجتمع" الجاهل . ويجب أن تتذكروا أيضاً ، أن بين بُناة الحضارات الكثيرين من العمال البسطاء ، مثل الفيزيائي الكبير (فاراديه) و(أديسون) . وأن آلة الغزل قد اخترعها الحلاق أراكرايت ، وأن أحد أفضل رسامي الخزف كان الحداد برنارد باليس ، وأن أعظم درامي في العالم هو الممثل البسيط

شكسبير . وكذلك ، كان موليير ، وهناك مئات الأمثلة ، على أمثال هؤلاء الناس ، الذين حققوا نجاحاتهم بفضل هذه "التمارين" .

كل هذا ، كان ممكناً ، للأفراد العاملين ، الذين لايملكون احتياطياً ذا قيمة من المعارف العلمية والتكنولوجية ، كما تمتلكون في عصرنا الراهن .

على عاتقكم تقع مهمة عظيمة ، واضحة هي "التخلص من العالم القديم" وبناء العالم الجديد ، الذي بدئ ببنائه . أما بالنسبة لطبقتنا العاملة ، فإنها تنمو في كل مكان ، ومهما وضع العالم القديم العصي أمام عجلاتها ، فإنها ستتطور ، وبالتدريج يتجمع حولها ، كل عمال الأرض . ولقد طُرِح أمام هذه المهمة بجرأة سؤال كبير "ماالعمل ؟" ، ولكن من المفروض الا يجد مكاناً له ، وألا يقال : (إن الحياة صعبة ؛ أو أنها صعبة حقاً . أليست صعبة هي الحياة !) . لأن متطلباتها أصبحت أكبر وأكثر مما كانت عليه في عهد آبائكم ، الذين لم يروها ولم يفكروا فيها .

إني أعرف بالتأكيد ، أن الكثيرين بينكم ، مسرورون بالعمل الجماعي ، هذا العمل الذي لايهدف الى تجميع الملايين ، بل لتحطيم سلطة القرش الدنيئة على الإنسان . الإنسان الذي هو أعظم وأعجب مافي هذا الكون ، الإنسان مبدع كل العجائب على هذه الأرض .

الآن ، أجيب عن سؤال : كيف تعلمت الكتابة ؟

تكونت انطباعاتي مباشرة من الحياة ، ومن الكتب . ويمكن مقارنة انطباعاتي الأولى بمواد الخام الأولية ، أما الثانية ـ فكانت كالقطعة نصف المصنعة ، أو بكلام فج ، كي يكون واضحاً ـ في الحالة الأولى ، كان أمامي حيوان ، أما في الحالة الثانية ، فقد شلخ جلده ، وصُنّع تصنيعاً جيداً . إني مدين جداً للأدب الأجنبي ، وخاصة ـ الأدب الفرنسي .

لقد كان جدي قاسياً وبخيلاً ، ولكن لم أره ، ولم أفهمه جيداً ، كما رأيت وفهمت "يفغيني غراندي" ، عندما قرأت رواية بلزاك التي تحمل العنوان نفسه . فأبو يفغيني العجوز غراندي ، كان بخيلاً وقاسياً أيضاً . وعموماً يشبه جدي . ولكنه كان أشد غباءً من جدي . وليس ممتعاً مثله ، وبمقارنتي بين العجوز الفرنسي ، وبين العجوز الروسي الذي لاأحبه ، ربحت وكبرت وذلك لم يجعلني أغيّر علاقتي

بجدي ، ولكن كان ذلك فتحاً كبيراً ـ فالكتاب الذي يحتوي هذه الموهبة ، جعلني أرى فيه مالم أكن أراه ، وعرفت فيه ، مالم أكن أعرفه .

رأيت في كتاب جورج إيللوت "ميدلمراتش" الممل ، وكتب أورباخ ، وشبيلفا غين ، الريف الانكليزي ، والالماني ، حيث لايعيش الناس ، كما يعيشون في نيجني غورود ، وفي شارع زفينر دنسكي ، بل أفضل بقليل . تحدثت تلك الكتب عن الانكليز والالمان ، وعن المال . وعن ضرورة تقديم الحب للرب ، والرعب أمامه . غير أنهم يشبهون أناس شوارعنا ، لايحبون بعضهم بعضاً ، خاصة ، لايحبون الناس المميزين ، الذين لايشبهون الأكثرية المحيطة بهم ، بهذا القدر أو ذاك . لم أفتش عن وجه التشابه بين الأجانب والروس . كلا لم أفتش عن ذلك ، بل بحثت عن وجه التفاوت بينهما . لكنني وجدت التشابه . كان صديقا جدي ايفان شوروف وياكوف كوتيلنكوف تاجرين مفلسين ، وتناقشوا دائماً ، كما تناقش الناس ، في رواية تيكر الرائعة : "بازار الحياة الهوجاء" .

لقد تعلمت القراءة والكتابة بـ(العهد القديم) . وأحببت هذا الكتاب ، الذي كتب بلغة موسيقية رائعة ، وعندما كان ياكوف كوتيلنكوف وجدي والعجائز عموماً ، يشكون ، بعضهم لبعض أولادهم ، تذكرت شكاوى الملك داوود لربه على ابنه المتمرد . وخيل إلي ، أن هؤلاء المسنين يكذبون ، وهم يبرهنون بعضهم بعضاً ، أن الناس عموماً ، والشباب خاصة ، أصبحوا ، أسوأ ، وأغبى ، وأكسل من ذي قبل . ولايعبدون الله . هكذا ، بالضبط ، كما تحدث أبطال ديكنز المنافقون . . .

. . . لم أتبع في قراءاتي ، أي برنامج ، تم ذلك مصادفة ، فأخو معلمي ، فيكتور سرغييف ، أحب قراءة الروايات الفرنسية كسافيه دي مونتين ، غابور ريو ، زاكونيه ، بوفيه ، وبعد ان فرغ من قراءة هؤلاء المؤلفين ، عثر عل كتب روسيه ، هزأت بحقد من "النهلستين الثوريين" . وأنا أيضاً قرأت "قطيع بانورغوف" ـ كريستوفسكي ، "لاإلى مكان" ـ ستينبيتسكي ـ ليسكوف ، و "سراب" كليوشنيكوف ، و "البحر الهائج" بيسيمسكي . كان من الممتع أن أقرأ عن أناس لايشبهون الناس الذين أعيش بينهم بشيء . وكأنهم يمتون بصلة القربى إلى قاطع الطريق الذي دعاني "للتجوال" معه . إن "ثورية" هؤلاء الناس ، لم افهمها حيث

صور المؤلفون ، الذين كتبوا عن "الثوريين" الجانب الاسود فقط .

مصادفة ، وقعت قصص بوميالوفسكي في يدي . "مولوتوف" و "السعادة البرجوازية" . وعندما أراني بوميالوفسكي "الفقر المدقع" بالنسبة إلي ، شعرت أن "النهلستيين" الكئيبين ، أفضل من مولوتوف . وبعد بوميالوفسكي ، قرأت كتاب زارويين الممل "الجوانب المظلمة والمضيئة في الحياة الروسية" . لكن لم أجد جوانب مضيئة ، أما الجوانب المظلمة ، فأصبحت مفهومة وكريهة ، وقرأت كتباً رديئة ، لاتحصى ، لكنها كانت نافعة ، فالسيء في الحياة ، يجب أن يعرف كما الجيد ، يجب معرفة الكثير وقدر الامكان ، وبقدر ماتكون التجربة غنية ، ومتعددة الجوانب ، ترفع الانسان ، وتجعله واسع المدارك . اعطاني الأدب الاجنبي ، موادّ وفيرة ، من أجل المقارنة ، وأدهشتني روعة صنعته . فلقد رسم الناس بحيوية ، وانسجام ، حتى خيل إلي أنهم أقوياء جبابرة ، ورأيتهم أنشط من الروس ـ تكلموا قليلاً ، وفعلوا كثيراً .

لقد أثّر الأدب الفرنسي فيَّ تأثيراً تربوياً عميقاً حقيقياً ـ ستندال ، بلزاك ، فلوبير ، وانصح الكتاب الشباب "المبتدئين" بقراءتهم . وفي الحقيقة ، أن هؤلاء الفنانين عظماء . والأدب الروسي لا يمتلك بعد فنانين كهؤلاء . لقد قرأتهم باللغة الروسية ، وهذا لم يمنعني من أن أحس بقوة فن الفرنسيين . فبعد قراءتي لكثير من الروايات ، وبعد قراءتي ماين ـ ريد ، وكوبير ، غوستاف إيمارو بنسون ديوتيرايل ، فقد أيقظت قصص الفنانين العظماء هؤلاء ، في نفسي انطباعات عجيبة .

أتذكر حين قرأت "القلب البسيط" لفلوبير ، في عصر أحد الأعياد . يومها تسللتُ إلي سطح العنبر ، مختبئاً عن عيون الناس المبتهجين بالعيد . وانغمست بالقصة ، وكنت كالاعمى والاصم ، فالمرأة التي كانت أمامي في القصة ، حجبت عني ضجة العيد الربيعي ، هذه المرأة العادية جداً ، الطباخة ، لم تقم بأية مآثر بطولية ، ولا جرائم . وكان من الصعب علي أن أفهم ، لماذا هذه الكلمات البسيطة التي أعرفها ، والتي نسقها الكاتب في قصته ، عن الحياة التعيسة ، لتلك الطباخة ، هزتني بهذا القدر ؟ وفي هذا سر الحيلة ، العسيرة المنال . ولقد فكرت وجهدت في التفكير ، عفوياً ، وعشوائياً ، محاولاً ، أن أفهم صفحات الدنيا ، كي أجد بين

السطور حلاً لتلك الحيلة . لقد قرأت عشرات الكتب ، التي وصفت الجرائم الدموية ، والغامضة ، ولكن ، هاأنذا ، أقرأ " حوادث ايطالية " ل ستندال ، ومن جديد ، لااستطيع ، أن أفهم كيف تم صنع هذا ؟ فالكاتب ، يصنف أناساً قساة ، ومنتقمين ، قتلة ، وأنا أقرأ قصصه باللهفة نفسها "عيشة القديسين" أو اسمع "حلم مريم" وحكايتها عن "مسيرة آلام" الناس إلى الجحيم . كما ودهشت تماماً ، عندما قرأت في رواية بلزاك "الجلد المسحور" تلك الصفحات ، التي يصف فيها وليمة صاحب المصرف ، التي شارك فيها عشرات الناس ، وتعالت اصواتهم ، مرتفعة ، لتشكل ضجة فوضوية ، وكأني اسمعها الآن ، والمهم في ذلك ، أني كنت اسمع ، وأرى كيف يتحدثون ، أرى عيون الناس وابتساماتهم وحركاتهم . مع أن بلزاك لم يصف وجوه ضيوف صاحب المصرف وقاماتهم .

وعموماً ، إن فن رسم الناس بالكلمات ، فن يجعل كلامهم حياً ومسموعاً وأن جودة الصنعة ، وابداع الكلمة ، عند بلزاك ، والفرنسيين أدهشني دائماً . ولكأنما ، كُتب بلزاك قد رسُمت بطلاء زيتي ، وعندما رايت لأول مرة ، لوحات روبنسن ، تذكرت بلزاك حالاً ، وعندما قرأت دوستويفسكي بشغف حتى الوله ، اعتقدت ، أنه مدين لهذا العبقري ، الروائي العظيم . وأعجبتني أيضاً كتب غونكورف الواضحة ، وكذلك رسم زولا . أما روايات هيجو فلم تستهوني ، حتى رواية " العام الثالث والتسعين " قرأتها بلا مبالاة . ولقد أدركت سبب اللامبالاة هذه ، بعدما قرأت رواية أناتولي فرانس " عطشى الآلهة " . أما روايات ستندال ، فقد قرأتها ، بعدما تعلمت أن أمقت أشياء كثيرة ، كالكلام الهادىء ، والابتسامات الخبيثة التي ملؤها الشك . كل هذا أثار مقتي .

من كل ماقلت عن الكتب ، اخلص إلى القول ، إنني تعلمت الكتابة لدى الفرنسيين . ولقد كان ذلك مصادفة محضة ، وهذا لم يكن سيئاً . ولهذا السبب أنصح بالحاح ، الكتاب الشباب ، أن يتعلموا اللغة الفرنسية كي يتمكنوا من قراءة الكتّاب العظماء ، بلغتهم الاصلية ويتعلموا منهم فن الكلمة .

الأدب الروسي " الكبير " ـ غوغل ، تولستوي ، تورغينف ، غانشاروف ودوستويفسكي وليسكوف ـ فقد قرأته متأخراً جداً . ولقد أثّر ليسكوف فيّ تأثيراً

عظيماً ، دون أدنى شك ؛ بمعارفه الواسعة ، ولغته الفنية . إنه كاتب ممتاز وعليم بالمجتمع الروسي ، ولم تقوّم بعد ، خدماته في أدبنا . ولقد قال تشيخوف أنه مدين لهذا الكاتب ، وكذلك ريميزوف . أني أشير إلى هذه المؤثرات والعلاقات المتبادلة كي أعيد القول : من الضروري معرفة تاريخ تطور الأدب الاجنبي والروسي .

عندما بلغت العشرين ، بدأت أفهم مارأيت ، وماسمعت ، وماعشت ، حتى كان من الضروري أن احدث الناس عن تلك الاشياء ، ولقد خيل إلي أني أعرف واحس باشياء لايعرفها الآخرون . وهذا حيّرني وأقلقني . وحتى عندما قرأت كبار الكتاب ، مثل ، تورغنيف ، كنت أتساءل ، هل بوسعي ، أن احدّث الناس عن أبطال " مذكرات صياد " بشكل مغاير لما كتبه تورغينف . في هذه الأعوام ، عدوني راوياً (حكاءً) ممتازاً ، ولقد أصغى إلي باهتمام وانتباه كبيرين الحمالون ، والخبازون ، و " المتشردون " ، والنجارون ، وعمال سكك الحديد و " الجوالون " ، وعموماً ، كل الناس الذين عشت بينهم . كنت احدثهم عن الكتب التي قرأتها ، واكتشفت أني كنت احدثهم بشكل غير دقيق عن هذه الكتب ، وأشوهها ، وأضيف اليها من مخيلتي ، ومن تجربتي الشخصية ، حدث هذا ، لأن وقائع الحياة والأدب امتزجا عندي في وحدة كلية . فالكتاب ـ ظاهرة ، من ظواهر الحياة ، كالانسان ، وهو (أي الكتاب) حقيقة حية ناطقة ، وهو أصغر من غيره من " الاشياء " الأخرى ، التي يصنعها الانسان .

سمعني المثقفون ، ونصحوني :

ـ اكتب ! جرّب أن تكتب !

كثيراً ماكنت أشعر ، وكأنني سكران تماماً ، وكنت أعاني نوبات الثرثرة ، في الكلام عن الأدب ، وذلك من رغبتي في التحدث عن كل مايزعجني ويفرحني أردت الكلام من أجل أن " أفرّغ شحناتي " . وعشت لحظات موجعة ، من جراء نوبات هستيرية ، إذ كنت احس ، انه قد وقف " حجر في بلعومي " ، وأريد أن أزعق ، إن أناتولي ـ عامل تركيب الزجاج ، صديقي وإنه شاب موهوب ، وإذا لم تقدم له المساعدة ، فإنه سيموت . وإن العاهرة تيريز ، ليست عاهرة ، بل هي انسان جيد ، وليس عدلاً ، أن الطلاب يستغلونها لهذا الغرض المشين ، وهم لايرون ذلك ،

كما أنهم لايرون أن الداية العجوز البائسة ، هي أفضل وأذكى من القابلة الشابة ياكوفلفا .

كتبت شعراً عن أناتولي وتيريز سراً وخفية عن صديقي الحميم الطالب غوركي بلنتييف ، وكتبت أن الثلج يذوب في الربيع ، ليس من أجل أن يجرف مياه الشوارع القذرة إلى القبية ، حيث يعمل الخبازون ، وان الفولفا ـ نهر جميل ، وأن كوزين هو الخائن يهوذا ، وأن الحياة ـ هي قذارة فظيعة ، مليئة بالضجر ، وقاتلة للروح .

كتبت الشعر بسهولة ، لكني رأيت أن أشعاري رديئة حتى القبح . واحتقرت نفسي لعدم مقدرتي ، وعدم موهبتي في كتابة الشعر . . قرأت أشعار بوشكين وليرمونتوف ونيكراسوف ، وكنت احس جيداً ، أني لاأشبه أحداً من هؤلاء الشعراء . أما النثر ، فلم أقرر كتابته ، لأنه خيل الي ، أن كتابة النثر ، أصعب من كتابة الشعر ، وأنه يتطلب نظرة صائبة حادة ، وأن الموهبة في كتابة النثر مرصوصة ، ومنسقة ومنسجمة ، بشكل غير عادي ، ولكن مع ذلك ، صرت أجرب كتابة النثر ، غير أني اخترت اسلوب النثر "المقفى" مكتشفاً بذلك اسلوبي البسيط . ولكن محاولاتي الكتابية تلك ، جعلتني كئيباً ومضحكاً . كتبت قصيدة "كبيرة" بالنثر "المقفى" ـ "أغنية البلوطة القديمة" . فشطب كورلينكو عشرات الكلمات منها ، حتى وصل إلى جذور هذا النوع من الشجر . وكنت قد ضمنت تلك القصيدة أفكاري حول مقالة "تعاقب الحياة" التي نُشرت إن لم أخطئ ، في المجلة العلمية "المعرفة" . تحدثت المقالة عن نظرية الارتقاء ، وبقي منها في ذاكرتي ، جملة واحدة فقط : "جئت إلى هذا العالم كي لاأوافق" . وأعتقد اني لم أوافق على نظرية الارتقاء .

إلا أن كورلينكو ، لم "يشفني" من محاولاتي في كتابة النثر المقفى ، وبعد مضي خمسة أعوام ، مدح قصتي "الجد أرخيب" ، وقال عبثاً إني ضمّنت القصة "شيئاً يشبه الشعر" . عندها لم أثق بكلامه . ولكن ، في البيت عدت الى القصة ، فتأكدت بمرارة ، أن صفحة كاملة سودتها ، في وصف المطر في السهوب ، وقد كتبتها بهذا النثر المقفى الملعون الذي تبعني طويلاً بشكل غير ملحوظ ، وتسلل الى قصصي ، وكان في غير مكانه . كنت أبدأ قصصي بعبارت غنائية ، هكذا ، مثلاً : "مرت أشعة القمر من خلال غصون شجرة المشمش" كنت أشعر بالعيب ، بعد أن

تنشر . وعموماً ، حاولت أن اكتب بشكل "جميل" : "السكير المتكئ على عمود المصباح الكهربائي ، نظر باسماً الى ظله الذي يرتجف" . والليلـحسب كلماتي ، كان هادئاًو مقمراً ، وفي مثل تلك الليالي لم ينيروا المصابيح الكهربائية . والظل لايتحرك . وإذا لم تكن ثمة ريح ، فالنار تشتعل بهدوء . و"وصف" كهذا و(فلتات) من هذا النوع وجدت تقريباً في كل قصة من قصصي . ووبخت نفسي بشدة وحاسبتها على ذلك . "ضحك البحر"ـ كتبت ذلك ، واعتقدت طويلاً ، أن هذا جيد . فسعياً وراء جمالية العبارة ، كنت دائماً ، اقترف "ذنوباً" بحق دقة الوصف ، ولم أضع الأشياء في مكانها ، ولم أنوّر الناس بشكل أمين . "أما وضعية الفرن ، عندك فليست صحيحة" . كانت تلك هي ملاحظة ليف تولستوي ، عندما تحدث عن قصتي "ست وعشرون وواحدة" . ولقد تبين أن النار في الفرن المنحرف الزاوية ، لاتقدم للعمال النور الكافي ، كما هوعليه الوصف عندي .

تلك كانت أخطاء صغيرة ، لكنها تحمل مغزى كبيراً ، لأنها تخرق حقيقة الفن وعلى كل حال من الصعب جداً إيجاد الكلمات الدقيقة ، ووضعها في مكانها ، وفي الوقت نفسه لم تكن قد قيلت من قبل الكثيرين "بحيث تكون الكلمات مطابقة بإحكام للافكار المطروحة" . فإن تصور الكلمات لوحة حيّة ، وترسم الصفات الدقيقة للشخصيات ، وتتثبت بسرعة في ذاكرة القارئ و"تزين" الناس ، هذا أمر ، وأن يكون الوصف "متناغماً" حياً ، بحيث يتمنى المرء أن يمس بيده ماهو مصوراً ، كما كنت أتمنى أن أمس أبطال "الحرب والسلم" عند تولستوي فإنه أمر آخر .

كنت بحاجة لأن أصف المظهر الخارجي لبلدة تقع وسط روسيا ، ببضع كلمات ، وكان ذلك يتطلب مني ثلاث ساعات حتى يسعفني الحظ ، بانتقاء الكلمات ووضعها في مكانها المناسب : "في وسط السهل المتموج المقسم بدروب موحلة تقع بلدة أوركوف المبرقشة التي تشبه علبة مزينة على كف كبيرة مجهدة" .

خيل إلي ، أني كتبت هذا بشكل صحيح وجيد ، وعندما نشرت القصة ، رأيت أن ماكتبته ، يشبه الكعكة المنقوشة ، أو علبة شوكولاته جميلة .

وعلى العموم ، يجب استخدام الكلمة بدقة متناهية ، وجدية ، هاكم مثالاً ، من مجال ثان : لقد قيل : "الدين ـ أفيون" . ولكن الأطباء ، يعطون الأفيون

للمرضى ، كمادة مخدرة ، ومخففة للألم . وهذا يعني ـ أن الأفيون مفيد للانسان ، ولكن اذا استعملوا الأفيون للتدخين ، كالتبغ ، فإن الأفيون يميت الإنسان . والكثيرون ، لايعرفون أن الأفيون هو سم قاتل ، ومضر أكثر من الفودكا .

إن عدم نجاحي ، جعلني أتذكر دائماً كلمات الشاعر الحزينة : "ليس في العالم ألم ، أقوى من ألم الكلمة" .

وحول هذا الموضوع ، تحدث بشكل أفضل مني ، غورتفليد في كتابه "أوجاع الكلمة" الذي صدر عام ١٩٢٧ . إنه لكتاب جيد جداً ، وأنّبه "زملاء القلم المتدئين" الى قراءته . "باردةً ، بائسةً وشحيحة هي لغتنا" ، اعتقد ،أنه قالها (نادسون) ، وندرة هم الشعراء الذين اشتكوا من "بؤس" اللغة . واعتقد أن الشكوى من "بؤس اللغة" ليست شكوى روسية ، بل هي شكوى عالمية ، والذي يدعو إلى هذه الشكاوي ان هنالك مشاعر وأفكاراً لايمكن أن توصف بالكلمات . عن هذا بالذات ، يتحدث بشكل رائع كتاب غورنفيلد . ولكن إذا ما استبدلنا "لايوصف بالكلمات" نجد أن اللغة الروسية غنية ، وتغنى دائماً ، وباستمرار . ولكي نتأكد من غنى وسرعة نمو اللغة ، يستأهل الأمر أن نقارن احتياطي الكلمات لكل من غوغل وتشيخوف ، وتورغينف وبونين ودوستويفسكي ، ولنقل ليونيد ليونوف . والأخير ، كان قد أعلن في الصحافة ، أنه يستمد من دوستويفسكي ومن تولستوي . وأن تأثره بالكاتبين ، لايشهد على أهمية الكاتب الشاب وحسب ، بل ويكشف عن موهبته أيضاً . فلقد أظهر في رواية (اللص) بشكل لايقبل الجدل ، إن فن لغته مدهش . ولقد أدخل الكثير من الكلمات الدقيقة السديدة الى اللغة . هذا ، دون أن نتحدث عن بناء روايته المدهش ، بتعقيده وصعوبته . وأعتقد ، أن ليونوف ،إنسان أصيل ، وله "أغانيه الخاصة" ، وقد بدأ بغنائها ، ولايستطيع أن يعيقه دوستويفسكي ، ولاأحد آخر . ومن المناسب ، أن نذّكر ، أن اللغة لاتصنع عبثاً . وتقسم اللغة ، الى أدبية وشعبية ، ونقصد بذلك ، لغة مصقولة . أي لغة مبدعي الكلمة . وأول من فهم هذا بشكل رائع ، هو بوشكين ، وهو أول من بّين كيفية استخدام لغة الشعب ، وكيف يتم صقلها .

فالفنان ـ الذي يحس بوطنه ، بطبقته ، هو عين وأذن وقلب لهذا الوطن . وهو ـ

زمانه . وعليه أن يعرف الكثير ، فكلما عرف الماضي بشكل أفضل ، كان الحاضر ، واضحاً له ومفهوماً . وهذا يجعله يحس بعمق ثورة زماننا ، بجلالة ، وجسامة أهدافها ومهامها . ومن الضروري ، معرفة تاريخ الشعب ، ومن الضروري أيضاً ، معرفة أفكاره الاجتماعية والسياسية . فلقد برهن العلماء ومؤرخو الثقافة والاثنوغرافيون ، أن هذه الأفكار ، تنداح في الحكايات ، والأساطير ، والأقوال المأثورة ، والأمثال الشعبية . وتعبر عن أفكار الجماهير الشعبية بشكل عام . وان الأمثال الشعبية ، والأقوال المأثورة مفيدة ، بشكل خاص للكتّاب المبتدئين ، ليس لأنها تعلم اقتصاد الكلمة ، واختصار القول ، والايجاز في العبارة ، هاكم لماذا : إن الأكثرية الساحقة ، من سكان بلاد السوفييت ـ من الفلاحين ، ومن هذه الطينة ، ولد العمال ، البرجوازيون ، والتجار ، والقساوسة ، والموظفون ، والنبلاء ، والعلماء ، والفنانون . فالتفكير الفلاحي نشأ ورُبي في الكنيسة الحكومية . ولقد بثت تعاليم الكنيسة هذه منذ زمن بعيد ، التفكير بشكل جاهز وجامد .

عندما قرأت كتب "المحافظين" وكتب "المدافعين عن نظام الاستبداد" لم اجد في تلك الكتب جديداً ، لأن في كل صفحة ، كررت من قبلها ، ولكن بشكل مقلوب وكل هذا عرفته منذ الطفولة ، وإنه لمن الواضح ، أن حكمة المحافظين ـ ليونوف وبوبيدونتسف وغيرهما ، منغمسة في "حكمة الشعب" التي سيطرت عليها الكنيسة . ومن البديهي ، أن هنالك أقوالاً مأثورة ، وأمثلة شعبية كثيرة ، مغايرة تماماً لما ذكرناه .

وعلى كل حال ، تشكل الأمثال والأقوال المأثورة ، مجازياً ، كامل الحياة الاجتماعية والتاريخية للشعب الكادح . كما الأصابع في الكف . لقد تعلمت الشيء الكثير من الأمثال الشعبية ، وبكلام آخر ، من أفكار الأقوال المأثورة . أتذكر سولداتوف كنّاس ، يكنس الشوارع . وذات يوم ، كانت مكنسته جديدة ، وغير ملوثة ، فنظر إلي ، وغمز بعينيه فرحاً وقال :

"المكنسة جيدة ، والأوساخ لايمكن كنسها تماماً . أنا أنظفها والجيران يأتون بها" .

فهمت حالاً ، الكناس ، قال الصدق ، حتى الجيران ، ولو كنسوا أمام بيوتهم ،

فالريح ستحمل الأوساخ من شوارع أخرى ، وإذا ما نظفت كل شوارع المدينة ، فإن الغبار سيأتي من الحقل ، والطرق ، ومن مدن أخرى ، فمن الضروري ، أن تنظف أمام بيتك . ولكي تكون النظافة أعم وأشمل ، إذا شملت الشارع كله والمدينة كلها ، والأرض كلها .

هكذا يمكن قلب المثل الشعبي ، وهاهو ذا مثال ، كيف ينشأ : في مدينة "نيجني نوفغورد" انتشر وباء الكوليرا . فأشاع برجوازي ضيق الأفق ، أن الدكتور يميت المرضى ، فأمر المحافظ بارانوف باعتقاله ، وجعله عاملاً ، في مكان معالجة المصابين بالكوليرا ، وبعد مضي فترة زمنية شكر البرجوازيُ المحافظ على هذا الدرس ، فأجابه بارانوف : "اعمس رأسك في الحقيقة ـ تقلع عن الكذب" .

كان بارانوف فظاً ، ولكن ليس غبياً ، وبظني ، أنه استطاع أن يقول تلك الكلمات . وبالمناسبة ، سيان ، من قالها . وهكذا ، على مثل تلك الأفكار الحيّة ، تعلمت التفكير والكتابة . لقد وجدت أفكار الزبالين ، والمحامين ، وكل اصناف الناس الآحرين "السابقين" وغيرهم ، في الكتب ، وبكلمات أخرى ، إن وقائع الحياة والأدب ، متبادلة وتكمل بعضها بعضاً . أما كيف يصنع الكتاب "النماذج" والطبائع ، فلقد تكلمت أعلاه ولكن يمكن أن يكون مفيداً أن أجرب مثلين آخرين : "فاوست" لغوته ، واحدة من اروع ثورات الإبداع الفني ، التي هي "ابتكار" او فكرة أو الأصح ، "فنتازيا" مجسدة ، بافكار وصور فنية . لقد قرأت "فاوست" ، عندما كان عمري عشرين عاماً . وبعد فترة وجيزة ، عرفت أنه منذ مئتي عام قبل ظهور كتاب الألماني "غوته" و "فاوست" ، كتب الانكليزي كريستوفر مارلو، ان لـ"بوتشني" البولوني ، رواية "بان تفاردوفسكي" هي أيضاً فاوست . مثلها مثل رواية الفرنسي بول موسيه "الباحث عن السعادة" ، وان أساس كل الكتب ، التي تحدثت عن "فاوست" مستمد من الحكاية الشعبية ـ القروسطية عن أن الإنسان ، الذي كان متعطشاً للسعادة الشخصية ، وللسيطرة على الطبيعة الغامضة ، وعلى الناس ، قد باع روحه للشيطان . نمت هذه الفكرة ، من مراقبة العلماء "الكيمائيين" في القرون الوسطى ، للحياة ، وعملهم من أجل صنع الذهب ، واكسير الحياة ، مانع الموت ، وبين هؤلاء وجد حالمون جيدون ، "ومتعصبون للفكر" ، ووجد أيضاً

منافقون . تلك كانت بعض الجهود العقيمة لشخصيات نادرة ، في تحقيق "السلطة العليا" ، وكانت سخرية في تاريخ مغامرات القرون الوسطى للدكتور فاوست ، الذي لم يسعفه الشيطان في تحقيق معارفه وخلوده . وإلى جانب شخصية فاوست المنحوس ، كانت ثمة شخصية أخرى ، معروفة لكل الشعوب : في ايطاليا ـ هذا بولتشيللو ، في انكلترا ـ بونتش ، في تركيا ـ كارابيت ، وعندنا ـ بيتروشكا . هذا البطل الذي لايقهر ولايغلب ، إنه البطل الشعبي في كوميديا الأطفال ، فهو ينتصر على الجميع ، على الشرطة ، على القساوسة ، وحتى على الشيطان والموت ، وهو الوحيد الذي يبقى حياً خالداً . هذان المثالان يؤكدان ، ماقيل أعلاه : الابداعات "مجهولة المؤلفين" ، أي ابداعات أناس لانعرفهم ، فهي تخضع أيضاً ، لقانون التجريد ، وتضخيم الصفات والطباع لهذه المجموعة من الناس او تلك في المجتمع ، أو تخصيص وتعميم هذه الصفات لمجموعة واحدة من هذه المجموعات . فخضوع الفنان الصّارم لهذه القوانين ، يساعده ، على صنع "النماذج" . هكذا صنع شارل ديكوستير "تيل أولينشبيغل" ورومان رولان ـ "كول بريونون" والفونيس دوديه ـ " تارتارن" . ان تصوير بورتريهات "نموذجية" واضحة جداً للناس ، يمكن فقط في شروط تطور المراقبة والقدرة على التصوير ، وايجاد التشابه ، ورؤية الفوارق وبشرط : تعلّم ، تعلّم ثم تعلّم . وفي المكان الذي تختفي منه المعارف الدقيقة ، تسود فيه وتنشط الأحاجي والتخمينات . وفي كل عشرة تخمينات تسعة أخطاء .

لاأعد نفسي فناناً ، لديه الموهبة في صنع الطباع والنماذج الفنية التي تكون ذات قيمة كبيرة ، من وزن نماذج وطباع ، كأبلوموف ، ورودين ، وبازاروف . .الخ . . ولكن من أجل كتابة "فوماغوردييف" اضطررت أن أرى عشرات الأبناء غير القانعين بحياة آبائهم وعملهم . لقد أحسوا بكآبة هذه الحياة التي تسير على وتيرة واحدة ، "الحياة الفقيرة المرهقة" والتي لانفع فيها . من هؤلاء ، كان (فوما) ، هؤلاء الذين يرفضون الحياة المملة ، والضجر المذل ، والناس المستغرقين في التفكير ، حيث خرج السكارى والأوباش و"حارقو الحياة" من جهة ، وأما من الجهة الثانية ، فقد خرج "الغربان البيض" امثال ، سافا ماروزوف ، الأداة التي قدمت "الشرارة" اللينينية ، مثل ميشكوف ـ عامل الباخرة ، والعامل غونتشاروف . . والمسكوفي شميت وكثيرون

آخرون . . ومن هنا ، ظهر رجال الثقافة مثل ميليوتين وموسكوفيون آخرون ، وكذلك ، كثير من تجار الأرياف الذين عملوا في مجال العلم والفن الخ . . فالأدب الروحي لفوماغورديف ، ماياكين ، صُنع من الصفات الصغيرة من "الأمثال" . وانا لم أخطئ : بعد عام ١٩٠٥ـ وبعد ان بلّط العمال والفلاحون للماياكيين الطريق الى السلطة ، بأجسادهم ، لعب المايكيون ، كما هو معروف ، دوراً كبيراً ضد الطبقة العاملة ، ومازالوا حتى اليوم يحلمون بالعودة الى الأعشاش القديمة .

* * *

يطرح عليّ الشباب ، السؤال التالي : لماذا كتبت عن "المتشردين" .

ـ بسبب العيش وسط البرجوازية الصغيرة ، حيث لاترى أمامك سوى الناس الذين لاهدف لهم ، إلا الغش والاحتيال ، ومص دم الإنسان من أجل الكوبيك ، ومن الكوبيك تجمع الروبلات . وانا ، كذلك ، مثل مراسلي ، ذي التسعة عشر عاماً "الذي بكل صبره واحتماله" كره هذه الحياة المقيتة اللعينة ، كالبعوض ، للناس العاديين ، الذين يشبهون بعضهم بعضاً كالقطع النقدية النحاسية .

بدا المتشردون ، بالنسبة الي "أناساًغير عاديين" . و"غير العادي" فيهم ، أنهم أناس "منخلعين عن طبقتهم"ـ منفصلون عنها ، نابذون لها ، فاقدون لصفات طبقتهم المميزة .

في قازان ، في "معمل الزجاج" عاش عشرون رجلاً ، غير متجانسين "الطالب" رادلوف أو رادونوف ، والعجوز جامع الخرق البالية ، الذي قضى عشا اعوام في الأعمال الشاقة . وفاسكا غراتشيك الخادم السابق للمحافظ اندريفسكي والميكانيكي رودذيفيتش ، وابن الكاهن ، والبيطار دافيدوف . وهؤلاء القوم ، كان مرضى ، سكارى مدمنين ، عاشوا معاً . ولكن ليس من دون عراك ، إلا أن شعو الرفاقية والود والتفاهم كان متطوراً بينهم . فكل ما يجمعونه من سرقة أوعمل ، كان يتقاسمونه فيما بينهم بالتساوي ، أو يأكلونه معاً . رأيت ،أنهم يعيشون أسوأ مر "الناس العاديين" ، غير أنهم ، يحسون بكرامتهم ، أكثر من أولئك ، وذلك لأنهم ليسوا جشعين ، ولايقتلون بعضهم بعضاً . ولايجمعون الأموال . وقلة منهم استطاعت أن تقتصد شيئاً ، إذ بقيت فيهم سمات "حب الملكية الذاتية" وحبهم

بالحياة "الشريفة" وقد استطاعوا أن يدخروا ، لأن فاسكا غراتشيك ، كان لصاً ظريفاً ، ومحظوظاً ، فقد كان يحمل لهم غنائمه ، ويعطيها "لأمين الصندوق" ، أما رودزيفيتش الذي تصرف " بشؤون" المعمل ، دون مراقبة ، فكان انساناً عديم الشخصية ، وضعيف الإرادة .

اتذكر عدة مشاهد من هذا النوع : سرق احدهم ، حذاء صيد جيد ، وأتى به كي يبيعه ويشرب بثمنه ، إلا أن رودزيفيتش المريض ، قال قبل عدة أيام ، أنه يجب قص الحذاء ، فنشرب بثمن الساقين والحذاء نعطيه" للطالب" فإنه يمشي بحذاء مهترىء مهلهل ـ تبرد رجلاه ـ فيموت ، وهو انسان طيب .

قصوا الحذاء ، ولكن المحكوم بالاشغال الشاقةالقديم ، اقترح ان يخيط من الساقين خفين . واحد له ، والثاني لرودزيفيتش . وهكذا ، لم يبيعوا الحذاء ليشربوا بثمنه . وقد علل غراتشيك صداقته لهؤلاء الناس ومساعدته وكرمه لهم من جراء حبه لهذا " المتعلم" .

قال لي ذات مرة : أنا أخ ، أحب الانسان المتعلم والنساء الحسان أكثر . كان انساناً عريب الاطوار . ذا شعر أسود ، ووجه رقيق جميل ، وابتسامة لطيفة . كان مطرقاً دائم التفكير ، قليل الكلام ، وفجأة ذات يوم ،انفجر هائجاً مسعوراً ، مسروراً . رقص ، وشرب ،وحكى عن نجاحاته ، عانق الجميع ، كالذي يذهب إلى الحرب ، إلى الموت . وفي القبو التابع لخمّارةبوتوف ، في شارع (زادنيا موكريا) حيث تقوم الآن محطة موسكو للقطارات ، أطعم ثمانية اشخاص ، عجزة بائسين ، من بينهم كانت امرأة شابة مجنونة ، ومعها طفل عمره عام واحد . وقد تحول إلى لص بهذا الشكل : حين كان خادم المحافظ ، قضى ليلة مع عشيقته ، وفي الصباح وفي الطريقه إلى البيت ، وهو مايزال مخموراً ، سرق من بائعة الحليب ، زجاجة حليب ، وشرع بشربها . فاعتقلوه فوراً . وصار يتعارك معهم ، فحكم عليه القاضي كولونتايف القاسي الليبرالي الفظيع ، بالسجن . وعندما انهى فاسكا فترة سجنه المحكوم بها ، تسلل إلى مكتب كولولنتايف ، فمزق له أوراقه وسرق ساعة المنبه ، والمنظار ورجع إلى السجن من جديد . وأنا ، تعرفت إليه ، بعد عملية سرقة غير موفقة ، في قرية (تاتارسكي) حيث قمنا بمراقبة العسس الليلي ، فوضعت رجلي أمام

احدهم معرقلاً ، كي يتمكن فاسكا من الهرب ، يومها هربت معه . وكان بين المتشردين هؤلاء أناس غريبو الاطوار ، لم أفهمهم جيداً ، لكنني ظفرت منهم بفوائد كثيرة . هؤلاء لم يتذمروا من الحياة . أما عن الحياة السعيدة · لضيقي الأفق" فكانوا يتحدثون بسخرية ، وهزء ، وذلك لم يكن حسداً ، وليس لأنهم لا يستطيعون الحصول على مايحصل اولئك عليه ، بل وكأنه من اعتزازهم بكرامتهم ، ومن ادراكهم ، أنهم يعيشون (التعاسة) وفي الوقت نفسه ، يدركون على الرغم من فقرهم ، انهم يعيشون أفضل من اولئك الذين يعيشون في (بحبوحة) .

رأيت كوفالد (صاحب مأوى) -" يأوي إليه المتشردون" أول مرة ، والذي صورته في قصتي" الناس السابقين" في مكتب القاضي كولونتايف ، ولقد أذهلتني ثقته ، واعتزازه بنفسه . حيث وقف هذا الرجل الاشعث ، يجيب على اسئلة القاضي باحتقار . كذلك ادهشني المتشرد اللطيف المضحك من مدينة أوديسا ، الذي قص لي حادثة ، وكتبتها في قصة (تشلكاش) ، وكنت قد التقيت به في المستشفى في مدينة نيقولا(خيرسون) ، أتذكر جيداً ، ابتسامته ، التي كشفت عن اسنانه البيضاء الرائعة . الابتسامة التي كان ينهيها بقصته عن خيانة شاب كان قد رعاه وشغّله معه . لقد ذكرني بابطال دوماس الطيبين . وبعد خروجنا من المستشفى جلسنا في أحد منتزهات المدينة ، وقدم لي بطيخاً أصفر ، واقترح علي قائلاً : " أتعمل معي عملاً جيداً ، فإني أتوسم الخير والفائدة فيك" . وشكرته بامتنان لاقتراحه هذا ، ولكني ، في تلك الآونة ، كنت أعرف ، أنه يوجد عمل ، أفضل بكثير من التهريب والسرقة .

بهذا يكمن اندفاعي نحو" المتشردين" هادفاً تصوير أولئك الناس" غير العاديين" وليس تصوير البرجوازيين الضحلين . هنا ، تأثرت بالأدب الأجنبي ، وخاصة بالأدب الفرنسي ، الذي كان واضحاً وجلياً أكثر من الأدب الروسي . والحقيقة ، أن المهم هنا ، كانت الرغبة في تزيين" الحياة" المرهقة البائسة ، التي تحدثت عنها الفتاة ذات الخمسة عشر عاماً .

هذه الرغبة ، كما قلت سابقاً ، تسمى"بالرومانتيكية" ولقد اعتبر بعض النقاد ، أن رومانتيكيتي ، انعكاس للفلسفة المثالية ، وأعتقد أن ، هذا ، ليس صحيحاً .

فالفلسفة المثالية ، تعلّم ، أن فوق الانسان والحيوان ، وفوق كل الأشياء ، التي يبدعها الانسان تسيطر "الفكرة المطلقة" . من وجهة النظر هذه فإن قوة ـ مافوقنا ، توجد فكرة القيود ومحرك الاحتراق الداخلي ، وفكرة انبوبة باسيل للسل ، وفكرة الأسلحة سريعة الاطلاق . فكرة الضفدع ، والجرذان ، وكل ما يدب على الأرض ، وكل ما يصنعه الانسان . وإنه لمن الواضح جداً ، أنه من هنا تنبع حتمية الاعتراف بوجود خالق لكل هذه الأفكار ، كائناً من كان . ولكن لماذا يخلقون النسر ، والقملة ، الفيل والضفدع .

بالنسبة الي ، اعتقد بوجود أفكار خارج الانسان . والانسان بالنسبة إلي ، هو المبدع لكل الأشياء ، ولكل الأفكار . أجل هو بالذات ـ الخالق العجيب ، ومستقبلاً سيكون سلطان كل القوى الطبيعية ومروضها . إن أروع ما في عالمنا ، هو المصنوع بالعمل ، باليد البشرية الخلاقة . وأن كل افكارنا ، تنبع وتظهر من العمل ، وهذا ما يؤكده لنا تاريخ تطور الفن ، والعلم ، والتكنولوجيا .فالفكرة تاتي بعد الفعل (الواقعة ـ الحادثة) . وأمام الانسان"أنحني" لأني لاأرى في عالمنا ، إلا ما يجسده عقله وما يصوره بفنه ، وما يبتدعه . . .

وإذا كان لابد هنا ، من الحديث عن"القداسة" فالقداسة ، هي سخط الانسان من نفسه ، ومحاولاته ، ليكون أفضل مما هو عليه . القداسة هي كره الانسان لكل دناءات الحياة ، المصنوعة من الانسان ذ١ته . القداسة هي رغبته في تحطيم الحسد والجشع ، والجريمة ، والمرض ، والحرب ، وكل ما هو ضار بالناس على وجه الارض . القداسة هي العمل .

عن الواقعية الاشتراكية

تتطلب تقنية العمل الادبي ـ بالدرجة الاولى دراسة اللغة ، التي هي المادة الاساسيةلأي كتاب كان . وخاصة الكتابات الادبية (النثرية) . إن مفهوم كلمة"بِلْ ليتر" الفرنسية ، يعني بالروسية ـ الكلمة الجميلة . ويفهم من كلمة الجمال هنا ،هو تناغم مختلف المواد ـ وكذلك ، الاصوات ، والالوان ، والكلمات ، التي تضفي على ما يخلقه الانسان ـ الفنان ـ شكلاً مؤثراً ، في العاطفة والذهن ، كالقوة ، التي تثير الدهشة ، والفخر ، والفرح في الانسان .

يتشكل جمال اللغة الأصيل ، والذي يؤثر كالقوة ، من دقة الكلمات ووضوحها ، ونغمتها ، التي بدورها تشكل اللوحات والطباع ، وأفكار الكتب . ويتطلب من الكاتب ـ الفنان ـ المعرفة الواسعة باحتياطي مفردات القاموس الغنية ؛ والقدرة على اختيار المفردات الدقيقة ، الواضحة ، والقوية منه . فترتيب هذه الكلمات ، وتوزيعها الصحيح ـ حسب معانيها ـ بين النقاط يشكلان أفكاراً بشكل نموذجي ، ويعطيان لوحات مضيئة ، ويصنعان شخصيات حية من الناس ، مقنعة ، بحيث تجعل القارئ يرى ما يجسده الكاتب . ويجب على الأديب ، أن يفهم ، أنه لايكتب بالقلم فحسب . بل ـ يرسم بالكلمات ، لأنه يرسم لاكما الرسام ، الذي يجسد الإنسان جامداً ، بل عليه أن يصور الناس في حركتهم المستمرة . ويصور أفعالهم ، ويصورهم في صدامهم الدائم مع بعضهم بضعاً . يصور أيضاً ، تصارع الطبقات ، والمجموعات ، والأفراد . ولكن ، لاتوجد حركة في العالم ، لم تلق المقاومة ، ومن هنا ، فإن من الواضح ، إنه بالاضافة الى ضرورة اتقان اللغة بدقة ، وتنمية القدرة على اختيار أبسط الكلمات ، وأوضحها ، وأبلغها جمالاً ، والمصقولة جيداً ، من اللغة الأدبية ، والتي تعج ـ على الرغهم من كمالها ـ بالكلمات الفارغة

القبيحة ، والمشوهة ، بالاضافة إلى هذا ، على الكاتب أن يعرف جيداً تاريخ الماضي ، والظواهر الاجتماعية المعاصرة ، وعليه أن يقوم عندئذ بدورين في الوقت نفسه : دور الداية ، ودور حفار القبور . إن الكلمة الأخيرة ، تبدو كئيبة ، غير أنها في مكانها تماماً . فعلى إرادة الكتاب الشباب ومقدرتهم يتوقف إفعام الأفكار البهيجة اليقظة عليها .ومن أجل ذلك ، يجب أن نتذكر أن التاريخ ، يدعو أدبنا الشاب الى أن يقتل ويدفن كل ما هو ضار بالناس . ولو كانوا مازالوا يحبونه .

بداهة ، أنه لمن الأمور الساذجة والمضحكة ، أن نتكلم عن "الحب" في المجتمع البرجوازي ، الذي يدعي أنه أحد ركائز دعاياته الأخلاقية : "احب أخاك أو جارك كما تحب نفسك" . وهذا يعني أنه يؤكد حب الانسان لنفسه ، هو النموذج الأساسي المطلق للحب(*) . ومن المعروف جيداً ان المجتمع الطبقي ، لايمكن أن يُبنى ، ولايستمر في الوجود . إذا ما عمل بالوصية : "لاتسرق" ، "لاتقتل" .

لقد تعلم الطلائعيون في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ، أن يفهموا ، وقد فهموا حقيقة واضحة ومرعبة : ان مدنية البرجوازية ، وحضارتها ، مبنيتان على الصراع الوحشي للبرجوازية ـ (الجيران ـ المتخمين) ضد الأكثرية الساحقة ـ (الجيران ـ الجائعين جداً) . وانه لمن المستحيل ، ان "تحب جارك" إذا كان عليك أن تسرقه . وإذا ماقاوم السرقة ، فإنك ستقتله . ومنذ القديم ، ومن خلال تطور "النظام" البرجوازي ولد من بين الفقراء والجائعين ، قطاع الطرق ، في البر والبحر ، وكذلك ، ولد أيضاً دعاة الانسانية أولئك الناس أشاروا للجائعين والمتخمين وأنصاف الشبعانين ، أن يحدوا من الاسراف في حب ذواتهم .

لقد فضحت أفعال قطاع الطرق ، بشكل واضح جداً الأساس الجوهري ، الذي تقوم عليه حكومة الأغنياء ، وظهرت عند الأغنياء ضرورة القضاء على قسم من قطاع

(*) « إن حب الذات هو قضية إيجابية عن قضايا القانون الإلهي ، ومن هذه النقطة المذكورة ، يتطور حبنا للجار . »

ـ بشير الكنيسة ، العدد ٤٥ ـ ١٩٠٩ . مقالة عن حرق الجثث . المقال بدون توقيع، وربما كان للبروفسور يفسييف .

الطرق ، واستدعاء ـ القسم الآخر ـ الى إدارة جهاز الحكم . ففي العصور السابقة ،مثلاً ، القرون الوسطى ، اتخذ البرجوازيون ، والتجار ، قطاع الطرق قادة لهم ، في صراعهم مع الحرفيين ، والفلاحين : الدوقات ، الدكتاتورات الطغاة . "أمراء الكنيسة" الخ . ولقد استمرت هذه الطريقة في دفاع التجار عن أنفسهم ضد العمال ، حتى أيامنا هذه ، إذ يترأس الحكومات البرجوازية أصحاب المصارف ، وصناع الاسلحة ، والمغامرون الشجعان ، وغيرهم من "الخطرين" اجتماعياً . كما وأن دعاة الانسانية ، لم يتركوا التجار يعيشوا بهدوء ، ولهذا السبب ، فإن اولئك الناس الذين دعوا باصرار ، وأشاروا الى الحد من الاسراف في حب الذات ، فقد قضت عليهم البرجوازية ، بمختلف الأساليب ، حتى حرقهم أحياء . أو أغروهم ، كما في أيامنا هذه بالخيانة ، بتعيينهم بمناصب رفيعة ، وعندما يصعد هؤلاء ، يبدأون بالدفاع عن النظام البرجوازي ، واستتباب الأمن فيه . كما نرى هذا في أعمال وزراء أوروبا الذين أتى بهم التجار من صفوف العمال الاشتراكيين السابقين .

بيد أن هذا كله ، لايؤدي بالبرجوازية الى "التعاون السلمي بين الطبقات" ولاالى ماتتمناه في بناء "العلاقات الطبقية المنسجمة" ، العلاقات المنسجمة بمعنى ، أن الأقلية المتخمة "الجيران" التي تمتلك : "السلطة السياسية" تفعل ماتريد . وأما الأكثرية "الجائعة ـ الجيران" فتخضع بمذلة لها ، وتنفذ ما يطلب اليها التجار المتخمين ، في كل البلدان ، هؤلاء اتخموا وتبلدوا من "مباهج" حياتهم الاجرامية . لقد كشف التاريخ باستمرار ، فاضحاً بشكل هزلي ، المحظوظين ، المكللين بالذهب . أمثال ، رجال الأعمال ـ المغامرين ، كالمشهور "ملك الثقاب" ايغاركرينغر ، وأمثاله . فالشاهد الساطع عن طبيعة البرجوازية الهشة ، غير المستقرة هو تكاثر عمليات الانتحار بينهم ، غير أن اولئك الذين ينهون حياتهم بأنفسهم ، لايغيرون حال الباقين الأغبياء الذين يواصلون حياتهم ميكانيكياً ، وبشكل أحمق وسافل . ولايتورعون عن تنظيم مجزرة دموية جديدة والتي ربما تدّمر طبقة من الناس المحبين لأنفسهم ، والذين سببوا مصائب الشعب العامل وآلامه وتعاسته .

فالاديب السوفييتي ، سيسعف نفسه ، اذا ما استوعب الواقع ـ ومواده . إذا تصور نفسه ، متأرجحاً بين قوتين . الأولى ، تؤثر في العقل ، والثانية ، في العاطفة ،

هكذا تماماً قد وضعه التاريخ ، في عصر انهيار الرأسمالية ، في مرحلة تتصاعد فيها المعارك الطبقية العالمية ، المؤدية الى حتمية انتصار الاشتراكية . ولكن على الرغم من الضجة العظيمة للمعارك ، التي قد بدأت فإنها تُخمد بنقيق البرجوازيين الصغار ، الذين اعتادوا منذ القديم أن يقوموا بالصفقات ، والسرقات ،حسب طبيعتهم . لأنهم غير مؤهلين للحرب . ولكن عندما يبدأ الملاك الكبار الحرب - فإن الصغار ينقلبون لصوصاً ، يسرقون القتلى ، ويذبحون الجرحى ويسلبونهم . وبعد عملية كهذه ،كثيراً ما ينقلب الصغارمنهم كباراً . فمن المعروف ان الحروب البورجوازية" تخلق أبطالاً" . ولكنها بقدر أكبر تخلق محتالين . فعادة ، يبقى الابطال على أرض المعركة ، ممزقين قطعاً . أما المحتالون الاكثر مهارة ، فيقتحمون الحياة ، كمشرعين في القانون ، واصحاب املاك ، وعندما يدركون المنفعة المرجوةمن المذابح البشرية الجماعية ، فإنهم من جديد يبدأون بتحضير اعمال مربحةجداً ، ان ثمة الهاً ، اسمه - الربح ، هو وحده الذي يعبده البورجوازيون ، ويقدمون الملايين من العمال والفلاحين قرابيناً له .

تعيش البرجوازية الصغيرة ، وحتى الكثير من العمال ، الذين تسمموا بسبب جوارهم لها غارقين حتى آذانهم في المستنقع . ويتذمرون رافعين شكواهم خوفاً من البلل ،ويختلط هذا التذمر الفارغ ، مع النداءات البروليتارية الثورية البطولية ويخمدها ، إنهم يشكون من الحياة السيئة في المستنقع العفن الضيق . ويقومون بمحاولات جد قليلة ، من أجل الخروج إلى مكان عال وجاف ، في حين أن الكثيرين منهم لديهم كامل القناعة بأن المستنقع هو "الجنة الأرضية" . ولكن ، ومع ان تصوير "اللوحات" ضرورية للأديب - فإننا سنتحدث بشكل أقل عن التصوير .

يجب على كاتبنا السوفييتي ، أن يعرف تماماً أن أكثرية معاصريه - هم مادة عمله - اولئك الناس الذين ربتهم العصور على الصراع الذي لايرحم ضد بعضهم بعضاً ، من أجل كسرة الخبز . وأن كل واحد من "جيرانه" تحرقه الرغبة الى الثراء المادي ، وهذه رغبة طبيعية ترتكز على حاجة بيولوجية ، في الطعام والمسكن المريح . .الخ . وهذه الحاجة الضرورية تشترك فيها الحيوانات والحشرات كالثعلب ، والحدأة ، والخلد ، والعنكبوت ، التي كلها تبني أعشاشاً وجحوراً ، ولكن بعض

الحيوانات المفترسة والطفيليات ، تقتل أكثر مما تستطيع أن تلتهم . فعلى نزعة الناس الى الثراء المادي والرفاه ، مبنية كل حضارة البشرية ، ولكن طفيلية البرجوازية التي تمتلك السلطة ، والإمكانات ، غير المحدودة لاستغلال العمال والفلاحين ، قد خلقت بحجة اشباع الحاجات الضرورية ، الفائض المغري ، والذي أطلقوا عليه اسم "الرفاه".
ان تأثير هذا الفائض المفسد اعترفت به البرجوازية نفسها : ففي جمهورية روما القديمة على سبيل المثال كانت ثمة فونين ضد الترف والبذح ، ولقد ناضلت برجوازية سويسرا ، وفرنسا ، والمانيا ، ضد البذخ والترف في العصور الوسطى . في حين سلبت البرجوازية عمل الآخرين ، أكثر بكثير مما هو ضروري لسد متطلباتها . ولقد أصيبت بعدوى نزعة الربح الهين ، لتكديس الأموال والمقتنيات . وأصبحت مسعورة ، ونقلت هذه العدوى للعالم كله . ولقد ولّدت هذه العدوى لوحة بلهاء : في عواصم أوروبا ، هناك شوارع كاملة من الحوانيت ، مخصصة للمصنوعات الذهبية ، والأحجار الثمينة ، ومختلف "أدوات الزينة" التافهة . والتي تُهدر لصنعها طاقات الطبقة العاملة الغالية . والطبقة العاملة ، نفسها تعيش جائعة مستلبة امكانية تطوير متطلباتها ، مواهبها ، وقدراتها . إن نزعة البرجوازية الصغيرة ، للتراكم التافه للمتلكات ، نقلت الملكية الشخصية المريضة الى الطبقة العاملة .

يجب ألا يُعتقد ، أني ضد الرفاه ، عموماً ، كلا ، إنني مع الرفاه للجميع ، ولكنني ضد عبادة المال . فاصنع الأشياء على أفضل شكل تريده وكما تسمح الامكانات ، كي تكون متينة ، وتوفر العمل الإضافي المهدور ، ولكن لاتجعل من حذاء ، أو طاولة ، أو كتاب صنعته بنفسك "صنماً" فهذه "وصية" جيدة ، وكم يكون جيداً ، أن يستوعب عمالنا الشباب هذه الوصية .

إن الذين يعبدون الخيرات المادية ، والحياة المريحة الهادئة (غير آبهين لأي أمر ومهما يكن) حتى في أيامنا هذه التي تنهار فيها الثقافة البرجوازية برمتها ، ومايزالون يعتقدون بإمكانية وجود حياة مستقرة هادئة و"جميلة" . واعتقد ، أنه لاداعي للتكرار : إن أساس هذا الإيمان - هوحب الذات المغروس في الناس من الماضي ، والذي عززته الكنيسة و"رجالها القديسين" ، هؤلاء الذين يعدون نماذج حية لمحبي الذات ، وفي الوقت نفسه ، كارهي البشرية .

لقد أكدّ البرجوازي الحكيم الالماني ، (عمانويل كانت) في الفلسفة الدينية ، حب الذات وبكلام آخر الفردية والذي يعد تفكيره تفكيراً ميكانكياً ، وغريباً ، عن الحياة ، كجثة الميت .

فهذا الايمان ، انصرم عصره ، وهو ككل ايمان ـ أعمى ولكنه ، يلجم الناس ، ويلهمهم بقناعات زائفة فارغة ، إن كل واحد منا هو "بداية العالم ونهايته" ، لابل هو "الفريد" ، والأفضل ، والأغلى ، ففي هذا التقدير الذاتي ، تتجلى بوضوح تأثير الملكية الخاصة ، التي توحد القوى البدنية ، والميكانيكية عند الناس ، من أجل الهجوم والعدوان ، ومن أجل استغلال اولئك الذين من غير حماية ، أو حمايتهم ضعيفة ، وهي ـ حسب الضرورة ، وحسب "قانون" المنافسة ، تبقي كل واحد منهم في وضعية الدفاع عن النفس ، ضد "جاره" الذي هو صاحب ملكية وشريك في الرأي ذاته . والملكية الخاصة ، توحُد البرجوازية خارجياً ، من أجل العدوان ، وتمزقها داخلياً من أجل الدفاع عن النفس ، ضد بعضهم بعضاً "كل واحد لنفسه" . وهذا يخلق الحياة الذئبية ، (كحياة الوحوش المفترسة) . إن أخلاق أصحاب الملكية الخاصة ، ينطبق عليها المثل القائل : " الانسان ذئب لأخيه الانسان" .

إن الفردية الحيوانية ـ مرض ، نقلت البرجوازية عدواه إلى العالم كله ، والذي تموت هي به . كما نرى . ومن البداهة ، أنه كلما كان موتها أسرع ـ كان ذلك أفضل للشعب الكادح على الأرض ، فبقوته وإرادته يسّرع بهذا الموت .

إن البرجوازية الصغيرة بالنسبة للكاتب السوفييتي ، هي موضوع صعب ، خطر بسبب قوتها على العدوى ، ونقل السم . فكاتبنا الشاب "المبتدئ" لم يلحظ البرجوازي في "قوته ومجده" ، فهو يعرف البرجوازية الصغيرة ، من خلال الكتب فقط . وهي معرفة سيئة ، كذلك يعرف البرجوازية الأوروبية ، التي تعيش حياة مريضة ، مضطربة مختلة التوازن من خلال الكتب والصحف أيضاً . ففي بلاده ، مازال الكثيرون من أبناء البرجوازية الصغيرة الممزقة يعيشون ، وهم يدعون بخبث ، انهم انقلبوا "حيوانات اجتماعية" . ولقد تسللوا الى صفوف الشيوعيين ، وهم يدافعون عن "الأنا" بكل الخبث والنفاق والزيف الموروثين من الماضي . وهم بوعي أو من غير وعي ، يخربّون ، ويتقاعسون ، ويلتمسون النفع لأنفسهم فقط ، ومن

وسطهم ، يخرج المخربون ، والمضرون ، والجواسيس ، والخونة . لقد كتبوا عن حثالة الانسانية ونفايتها ، التي قُذفت بعيداً عن بلادنا ، ومازالوا يكتبون ما فيه الكفاية ، من الكتب . ولكن كل هذه الكتب تقريباً ليست جيدة . بل تصور العدو بشكل سطحي وضبابي ، وترتكز على "مناسبات وحوادث معينة" تحمل طابع النكت . إذ لايشعر المرء فيها "بالتاريخ" الضروري في المؤلفات الأدبية ، وفي المهمة التربوية الاجتماعية ، غير الرفيعة لهذه الكتب . ومن البديهي ، خلال خمسة عشر عاماً ، لن تخلق كتّاباً أمثال موليير ، وبلزاك . أو ، أن تربي مثل مؤلف "المفتش" أو مؤلف "السادة آل غولوفلوف" . ولكن ، في البلاد ، خلال المدة نفسها ، التي شيدت فيها الطبقة العاملة ، مدناً جديدة ، ومعامل عملاقة ، وشرعت بتغيير جعرافية أرضها ، إذ ربطت البحار بالأقنية ، وروت الصحارى ، وعمرتها ، وأغنت الدولة بالثروات الطبيعية الغنية المكتشفة . في البلاد ، حيث فرزت فيها الطبقة العاملة من بين صفوفها مئات المخترعين ، وعشرات العلماء ، إذ في كل عام يخرج إلى الحياة تقريباً ، نصف مليون من الشباب ، الذي حصل على شهادات التعليم العالي ، في هذه البلاد يمكننا ،أن نطالب الأدب بالكثير .

لقد حقق (الأدب الشاب) ، في هذه البلاد انجازات كبيرة ، وستغدو احاطته بالواقع أكثر شمولية ، وبديهياً ، نتمنى أن يصبح أكثر عمقاً . وسيصبح أعمق اذا ما تفهم الكتاب الشباب حاجاتهم لتلقي العلم ، وتوسيع دائرة معارفهم ، وتطوير قدراتهم ومواهبهم بدراسة تكنيك المهمة الثورية الهامة التي اختاروها .

وعند الخضوع لقوتي جذب التاريخ - الماضي البرجوازي ، والمستقبل الاشتراكي ، فإنه من الطبيعي ، أن يتذبذب الناس : فالطبيعة الانفعالية ، تشدهم للماضي ، والعقلية تشدهم للمستقبل . إنهم يصخبون بأصوات عالية - ولكن الانسان لايحس بالثقة والطمأنينة ، بأنهم قد اختاروا بشكل حازم ، وحاسم ، الطريق المحددةومع أن التاريخ قد بيّنها ، وأشار إليها بوضوح .

فالفردية المهترئة المفلسة ، مازالت تعيش وتنشط ، وتظهر من خلال الطموح البرجوازي ، ومن رغبتها في القفز إلى الأمام ، إلى مركز بارز وفي العمل "الاستعراضي" غير المخلص ، والمشوهه ، للبروليتاريا ، والذي يسيء الى سمعتها .

وخاصة في العمل الذي يتطلب "مقاومة أقل" . في الأدب ـ هذا الخط ، هو خط انتقاد العلاقات المتعلقة بالماضي . فوجه الماضي القبيح ،كما ذكرنا أعلاه ، لايعرفه الكتاب الشباب إلا بشكل نظري وسطحي . فليونة النقد الخفيف للماضي ، يصرف الكتاب عن ضرورة تصوير ظواهر الحاضر الهامة .

إن القدرة عند الكتاب الشباب ، لاتزال غير كافية ، من أجل تعليم القارئ الحقد على الماضي ، ولهذا السبب ، لايستطيعون أن يبعدوه عن ذلك الماضي ، بقدر ما يذكرونه به على الدوام . ويبرزونه ، ويؤكدونه ، ويثبتونه في ذاكرة القارئ .

ولكي نفضح خساسة الماضي ، وقذارته ، ونسلّط الضوء عليه ، ونفهمه تماماً ، فإنه من الضروري ، أن نطوّر قدرتنا ، بحيث يصبح بوسعنا أن ننظر إليه من قمم انجازات حاضرنا ، وأهداف مستقبلنا العظيمة . فوجهة النظر هذه ، يجب أن توقظ روح الحماسة ، والفخر ، والفرح ، الذي يعطي أدبنا نغمة جديدة ، ويكون الاتجاه الجديد ، الضروري لنا ـ ألا وهو ـ الواقعية الاشتراكية ، والذي من البديهي ـ أن لايخلق إلا من وقائع التجربة الاشتراكية .

نحن نعيش في وطن سعيد حيث يوجد من نحبهم ونحترمهم . ويجب أن ينطلق الحب عندنا ، من مشاعر الاعجاب للانسان أمام طاقته الابداعية . ومن احترام الناس المتبادل لقوتهم الجماعية التي لاحدود لها والتي تخلق الاشكال الاشتراكية للحياة ؛ من الحب للحزب الذي هو قائد الشعب العامل في الوطن كله ، ومعلم البروليتاريا في العالم .

بلزاك

يسعدني دائماً ، أن أتذكر ابداع بلزاك ، كعابر السبيل الذي يسير في واد من غير ذي زرع ، طويل وممل ؛ وفجأة ، يتذكر بقعة قريبة فيها ما فيها ، من الجمال والخصب ، والغنى ، والقوة .

كان عمري ثلاثة عشر عاماً ، عندما قرأت أول كتاب فرنسي . وكان ذلك الكتاب ، هو كتاب إدمون غونكر "الأخوة زيمغانو" . والكتاب ، قصة مؤثرة ، مثيرة للعواطف عن فنانين ، حكمت عليهم الأقدار ، حكماً مبرماً بالوحدة ، والعيش في حلقة ضيقة شوهت أرواحهم ، لمجرد الطرافة ، وحب الاستطلاع .

هذا الكتاب الرائع ، هزّني ، واستصرخ مشاعري الانسانية الحزينة ، وألهمني إلى الأبد . وخلق عندي نزعة لحب كل الناس الذين يقدمون للعالم أغلى ما لديهم ـ أرواحهم .

حينئذ ، أيقظ غونكر عطشي للتعرف على الأدب الفرنسي ، الذي كنت قد عرفت عنه قليلاً ، وبشكل متقطع ، عن بلد الفرسان وبلد الأبطال . ورحت أسأل معارفي الطلاب ، عن الكتاب الفرنسيين ، وطلبت إليهم أن يأتون بكتب فرنسية مترجمة . وقيض لي أن أهضم مجلدات الأب دوماس الكثيرة وبونسون ويوتيررايللا ، بواغوبيا ، زاكونيه ، غابوريو ، كاسافيه دي ـ مونتبين ، وعشرات المؤلفين الآخرين ، ومن بينهم وقع بين يدي مجلد صغير من مجلدات بلزاك ، وكان ذلك المجلد ، هو روايته "الجلد المسحور" . أذكر بكل جلاء ووضوح ، المتعة التي لاتوصف ، عندما قرأته ، وخاصة ، الصفحات التي يصف فيها دكان (الأنتيكات) العتيقة. هذا الوصف ، يبقى عندي ، من أعظم نماذج النحت بالكلمات . . والمكان الآخر من هذا هو الحوار الذي أذهلني أيضاً بصنعته الفنية. هوالحوار في الوليمة ، اذ

استخدم بلزاك عبارات متقطعة لذاك الحوار ، الذي دار حول المائدة راسماً الوجوه والطباع بشكل مثير ومنقطع النظير .

وصرت أبحث عن بلزاك .وكان الكتاب الثاني الذي قرأته له هو (pere goriot)- (الأب غوريو) . فهذا الكتاب جعلني انتصر بشكل نهائي ، وشعرت بنفسي زمناً طويلاً ، أني راستينياك ، الذي يهددالعالم ، كم أجل كرامة الانسان المداسة ، المهدورة ، ومن أجل الأوجاع والآلام ، التي تملأ صدور الناس . عشت في تلك الأيام ، بشكل سيء جداً . ولكن ، صحتي كانت جيدة ولهذا اصبحت رومانتيكياً . قرأت "الكوميديا الانسانية" ، عندما كان عمري عشرين عاماً ، ولقد وجه هذا الكتاب صفعة قوية جداً الى رومانتيكيتي غير الناضجة ، واحسست بعيقرية بلزاك ، وأحببته بحرارة ، كما يّحب المعلم والصديق .

بعد سنتين ـ ثلاث ، ظهرت في روسيا ترجمة المؤلفات الكاملة لبلزاك . فقرأت كل مؤلفاته مرتين ، وعندها ، فهمت عظمة هذا الكاتب ، وحجم موهبته الملحمية ، التي سحرتني وفتنتني ، وأدهشتني . فرحابة كتاباته ، وقوة أفكاره ، وجرأتها ، وصدق كلمته ، وموهبته ، في رؤية المستقبل ، قد تحققت في هذا العصر الراهن ، وجعلت منه واحداً من أعظم المعلمين في العالم .

فشكسبير ، وبلزاك ، وتولستوي ، بالنسبة إلي ثلاثة أعلام عظيمة ، دفعوا الانسانية إلى الأمام . فلولا بلزاك ماستطعت أن أفهم فرنسا ، تلك البلاد التي سارت دائماً ، ومازالت تسير في مقدمة البشرية . والتي تصنع في هذا المجال ، أوغيره أشكالاً جديدة للابداع ، وأشكالاً جديدة للحياة . إنها البلاد التي أحبها ، والتي يحمل لها العار أصحاب المصارف ، أولئك الذين اضطررت أن أتحدث عنهم ، ذات مرة ، إذ أثاروا غيظي ـ فأعمال البرجوازية الفرنسية . المعادية للثقافة ، المعادية للانسانية ، أرادت أن تعرقل مسيرة الشعب الروسي إلى الحرية- ولكن ، هذه الأعمال لم تعتم أبداً ، على تألق أسماء مثل هيجو وبلزاك ، وفلوبير ،الأبناء الحقيقيون لفرنسا ، بلد الأعمال العظيمة ، والأسماء العظيمة .

ليس بوسعي أن أصرف النظر عن هذا ولاأعرف ، كم أنا مدين شخصياً لبلزاك ، وأن تأثيره ، بشكل عام في الأدب الروسي كبير . وهذا من غير شك ، قد

أقرّ به وشهد عليه تولستوي ، الذي سألني ذات مرة :

ـ لمن تقرأ أكثر من الأخرين ؟

فذكرت له من أقرأ لهم . فقال :

ـ هذا حسن ، لكن أقرأ للفرنسيين أكثر من الجميع . بلزاك ، مثلاً ، الذي تعلمت عليه الكتابة . اقرأ ستندال ، فلوبير ، وموباسان ، إنهم يجيدون الكتابة . إن الإحساس بالشكل الفني للكتابة عندهم ، متطور جداً ، وعندهم قدرة التركيز على المضمون ، وفي صفهم يمكن أن تضع ديكنز فقط . ويمكن أن تضع تيكري ، فلو أني لم أقرأ (شارترز بارسكايا) لستندال ، ما استطعت كتابة لوحات "الحرب والسلم" بهذا أنهي رسالتي اليك .

بلزاك ـ إنه موضوع لانهاية له ، إنه طاقة خارقة بالنسبة إلي ، ولهذا ، فإن ذكراه تمتزج بحياتي ، وبأيامها الصعبة وهذا يثير اضطرابي . وأود القول أيضاً ، أن الكتاب لعب في حياتي ، دور الأم ، وأن كتب بلزاك عزيزة جداً على قلبي ، وأعز عندي من الأخرين ، وأكثر من ذلك ، إني لأشعر دائماً بقوة عظيمة ، وسرور كبير ، في ابداعاته ذات المعارف القيمة ، والرائعة الثمينة للحياة .

عن الفن

من المعروف والمسلم به ، أن فن الكلمة ، ولد في قلب العصور السحيقة . نتيجة أعمال الناس . وسبب ظهور هذا الفن ، هو رغبة الناس بتنظيم تجاربهم العملية في أشكال فنية ، بحيث تكون أسهل مثالاً للرسوخ في الذاكرة ، وعن طريق "الأمثال" و"الأقوال المأثورة .

لقد تبع فن الكلمة العمل ومباشرة . وفي هذه الكلمة ، تفتحت بدايات العلوم ، حول أساليب الصراع ، والمعطيات الضارة ، ومقاومة الطبيعة . ومن البديهي ، ان فن الكلمة ، كان يجب أن يظهر قبل قرون من ظهور الديانات البدائية ، والبرهان على ذلك ، أن الناس أعطوا الكلمة لبوساً سحرياً قوياً ، مؤثراً في الوحوش المفترسة ، وفي ظواهر الطبيعة .

ومناقشة هذا الأمر ، من وجهة النظر المنطقية المستقيمة الشريفة ، والتي تلهم العقل ، تؤكد أن العمل هو معلم ومنظم لهذا العقل . ومن الحق أن نؤكد ، أنه في تلك الحقبة الزمنية التي تعلم الناس فيها تقطيع الكلام إلى كلمات اعتبروا أنفسهم أكثر حكمة وعقلاً من الحيوانات .

العمل ، النار ، الكلام : هذه هي القوى التي بواسطتها استطاع الناس أن يبنوا الحضارة (الطبيعة الثانية) . ولم يعد الكلام مصدراً للتفاهم بين الناس فقط ، في المجتمع الضيق البدائي ، بل وأيقظ فيهم الفخر ، والفرح بنجاح أعمالهم ، وانعكس أيضاً على انتاجية عملهم .

إننا نحن مواطني الجمهوريات الاشتراكية ، تزداد قناعتنا ، يوماً بعد يوم ، أنه كلما كان عملنا الحر مثمراً ، كلما تطور الانسان بشكل أسرع وأقوى .

يصور تاريخ الثقافة البرجوازي ، حياة الناس البدائيين ، على أنهم عاشوا في رعب وقهر مستمرين أمام الظواهر الغامضة وغير المفهومة ، ويصور الإنسان مستغرقاً

في تفكيره حول النار ، والنوم ، والموت ، وهذا التأكيد يتطلب إعادة النظر ، والتدقيق ، كما كل البراهين البرجوازبة حول سير تطور البشرية . فالحكايات والخرافات القديمة ، لاتعكس رعب الإنسان أمام الطبيعة ، بل بالعكس ، تؤكد انتصار الإنسان عليها . وعن قوة الكلمة السحرية القادرة على قهر مقاومة الشر ، وظواهر الطبيعة بعزيمة العمل ومسيرته ؛ فالزلازل ، والطوفان ، وكل الكوارث الطبيعية عموماً ، لم تحصل يومياً ، ولم يعانِ منها كل جيل . والحيوانات ، لم تعرف ، أن الإنسان يصطادها من أجل لحومها ، ولم يعانِ "متوحشو" افريقيا واستراليا ، وزيلندا ، الرعب في أثناء لقاءاتهم الأولى مع الأوربيين ، بل تقدموا منهم بسلام وثقة .

ظهرت تراجيدية الحياة الاجتماعية ، وشناعتها عندما انقسم الناس إلى سادة وعبيد . ولحظة الانقسام هذه ، كانت لحظة ظهور الديانات . إن المنظرين ، ورجال الدين ، وناشري الدعاية ، الذين يروجون الحياة التراجيدية وشناعتها ، خدموا وساهموا بانسلاخ الأفراد عن الجماعة . وهم ، في أيامنا هذه ، مازالوا مستمرين بنشر دعاياتهم ، التي تبرر تقسيم الناس إلى سادة وعبيد ، وإلى مذنبين ومؤمنين صالحين ، وإلى ناس سيتعذبون بنار الجحيم أو سينعمون بملذات الجنة .

لم يستطع الناس أن يعيشوا دون أفراح . فقد عرفوا كيف يضحكون ، وغنوا الأغاني المرحة ، وأحبوا الرقص ، ومن جراء فرحهم بنجاحات أعمالهم ، أدخلوا الغناء إلى طقوسهم الدينية ، وكذلك الرقص واللعب ، حتى كنيسة المسيح المتجهمة ، القاسية ، كانت مضطرة في أعيادها ، على ادخال الأغاني . .

لقد حمل الفن والفرح ، خاصة إلى حياة العبيد الشاقة الصعبة . والعبيد بالذات ، هم مبدعو الجمال الذي نراه على المزهريات والخزفيات ، وذلك ما نستدل عليه بالزخارف الذهبية القديمة ، ومن الأسلحة ، والنحت ، والمعابد المصرية القديمة والاغريق ، والمكسيك ، والبيرو ، والهند ، والصين ، وكاتدرائيات أوروبا في القرون الوسطى ، ومن السجاد الشرقي الخ . . .

من الذي حوّل العمل اليومي الشاق المضني إلى فن . . في البداية ، بيديه ، وبعدها على الآلة ؟ إن مؤسسي الفن ، كانوا هم الفخارين ، والحدادين ، وعمال

النسيج ، والحائكين ، والصاغة ، والنحارين ، وعمال البناء ، والدهانين ، والخياطين ، والخياطات ، والنقاشين على الخشب ، والعظام ، وعموماً ، الحرفيون ، والناس الذين صنعوا الأشياء بفنية ، من أجل غبطة عيوننا ، والتي تملأُ المتاحف .

ما الذي دفع الناس إعطاء الأشياء العادية ، النافعة (اللوازم البيتية) الموبيليا ، الأواني ، الأشكال الجميلة ، ومختلف النقوش المذهبة ؟ وماذا دفع الناس عموماً كي يتزينوا ؟ إنها النزعة إلى صنع الشكل الأكمل . إنها نزعة بيولوجية . يكمن في أساسها رغبة الإنسان في أن يربي في ذاته الليونة ، وقوة العضلات ، وخفة الحركات ، ورشاقتها ، فهذه الرغبة بالتربية البدنية ، مجسدة بوضوح في بلاد الإغريق القديمة ، في فن النحت ، بشكل منقطع النظير .

يعرف الناس ، أن الصحة ترافق الإحساس بغبطة الحياة ، وأن الناس العاملون على تغيير جوهر المادة ، وظروف الحياة يحصلون على قمة المتعة والفرح . فرح المبدعين بالجديد وغير العادي .

ويحب الناس الأصوات المنتظمة موسيقياً ، والألوان الواضحة ، ويحب الناس أن يجعلوا ما حولهم أفضل ، وأجمل ، وأكمل مما هو عليه . فالفن يضع هدف المبالغة الفنية ، من أجل الأفضل ، ويبالغ باظهار الأسوأ ، وكل ما يضر بالإنسان ، ويشوه الإنسان ، كي يوقظ الاشمئزاز فيهم ، وكي تحرقهم الرغبة ، للتخلص من كل عار الحياة ورزائلها ، التي تصنعها البرجوازية البشعة السافلة . في أساس الفن يكمن نضال "مع" أو "ضد" . ولايمكن أن يكون هنالك فن لامبال ، لأن الإنسان ليس آلة تصوير ، وهو "يثبت" الواقع ، أو يؤكده ، أو يغيّره ويحطمه .

في عصر طفولة الحضارة ، تسابق الناس ، تسوقهم الرغبة ، لتحسين أنفسهم ، ونتيجة ذلك ، انقسم المجتمع إلى طبقات ، وأصبح العمل عبودياً ، مقيداً ، والإبداع ، مادة للبيع والشراء . وانقلب التنافس الشريف إلى مزاحمة الصناع ، ومنافستهم من جراء الصراع من أجل كسرة الخبز ، والمنافسة ، لزيادة ، كمية الأشياء "للسادة" خفضت نوعية الأشياء . فالعمال صنعوا ، الآلات البدائية الأولى من أجل أن يجعلوا أعمالهم أهين ، ولزيادة أرباحهم أيضاً . ولكن الآلة بين أيدي صاحب العمل أصبحت عدواً للعمال ، وفي أيدي العمال معاوناً له ، فهي توفر جهده ،

ووقت عمله .

وهكذا عشنا إلى زمن ، رأينا فيه : تطور التكنولوجيا . في البلدان الرأسمالية ، التي سببت العطالة للملايين ، هذه العطالة التي ترعب البرجوازية الصغيرة في أوروبا ، التي باتت تصرخ : "فلتسقط التكنولوجيا ، للوراء إلى العمل اليدوي" . وهذا نداء لايقاف نمو الحضارة ، نداء للرجوع إلى أشكال العبودية في القرون الوسطى . هذا زعيق سكرة الموت للرأسمالية .

لقد وضعوا أمام ابداع الإنسان ـ العامل الحر ، العراقيل الهائلة . ولكن دائماً ، كان هنالك أناس عاشوا حتى أيامنا (دونكيشوتيون) ، أولئك الذين لم تنطفئ الرغبة القديمة عندهم ، بصنع الأشياء بأية طريقة جميلة ، وغير عادية ، أناس كهؤلاء ، قليلو العدد . ولكني التقيت بعضهم في مناطقنا ، أتذكرُ جيداً ، أني صادفت أحدهم في أسفاري . إذ التقيته على باخرة بين (قازان) و (نيجني) . كان مسافراً إلى معرض عموم روسيا عام ١٨٩٦، وكان صغيراً نحيلاً ، أصلع ، له عيون ، كعيون الفأر ، ويبدو غاضباً أصفر ، كاليرقة . وله لحية كالكتان ، يمشي بجزمة مهترئة في ممر الدرجة الثالثة ، وينظر إلى المسافرين بحذر ، وبصوت لايكاد يسمع ، كان يعرض عليهم :

ـ اشتروا لعبة !

كانت اللعبة خشبية ، من جذر شجر العرعر ، واللعبة كانت عبارة عن رجل على رأسه قبعة ، يرتدي بنطالاً ، ويتكئ بكتفه على شجرة ، ماسكاً بيديه عصا . وجهه ينتفخ شراً ، يعض شفته السفلى بأسنانه ، والفم منحرف . كان الوجه مصنوعاً بدقة ، والجسم منحوت من وسطه فقط ، وكأنه نبت في الشجرة . وجهه ، يعبر عن لامبالاته ، وفي لامبالاته هذه ، واضحة دقة عمل النحات ، وذوقه ، ومعرفته بتشريح جسم الإنسان . طلب ثمن هذه اللعبة (تمثال الرجل) روبلين . ولكن المسافرين عرضوا عليه (١٥ كوبيكاً (قرشاً) وعشرين كوبيكاً . لكنه ، تابع سيره بصمت .

وقال أحدهم في إثره :

ـ يتلهى بالتوافه هذا العجوز .

ـ ومنحوته بشكل رديء ـ أضاف أحد الركاب . .

كان معي روبل ونصف ، لكن ما أردت أن أزيد غبن العجوز . وسألته :
ـ قطعتها بنفسك ؟ فاندهش وأجاب بسؤال :
ـ طبعاً ، ومن يكون غيري ؟ ثم قال :
ـ لاأمس شيئاً ليس لي .
وذهب إلى مؤخرة السفينة ، جلس في الزاوية ، وسحب من الكيس جذراً ، واستل من جيبه سكيناً حادة . فجلست بالقرب منه ورحت أحدثه ، فأراني أربع لعب أخرى تمثل : رجلاً بطيناً ، أصلع ، وبلحية حوارية ، حافياً وبقميص طويل من غير زنار . والرجل ينظر إلى الأعلى . راسماً إشارة الصليب ، يده منكمشة على الكتف الأيسر ، فاغراً فمه الأدرد ، ثم أراني راهباً طويلاً ، بأنف كبير ، مضيقاً عينيه . وأراني أيضاً امرأة عجوزاً ، مشعثة الشعر ، تهددبقبضتها شاباً سكيراً على رأسه قبعة من قبعات النبلاء . والتحف الخشبية الخمسة ، تحمل ميزة واحدة ، كانت جميعها مشوهة بادهاش . سألته : لماذا تصنع الناس بشكل مضحك . وأنت معلم بارع . فنظر من زاوية عينه ، وأجاب من غير حماس :
ـ أنا أنحت بشكل طبيعي ، الناس الذين أعرفهم ، ومنذ ثلاثة عشر عاماً ، وأنا أصنع هذا ، عمري سبع وخمسين سنة ، ويحسبونني أحمق طبعاً . ولكن هذا ، لايزعجني ، بالعكس ، هذا لفائدتي . عندنا ، لايزعجونك ، عندما تعيش أبله . ثم قال لي :
ـ بعض القطع الخشبية ، أصنعها أسوأ مما هي عليه في الواقع ، وبعضها أفضل مما هي عليه . الناس الطيبون ، أصورهم بشكل أفضل وأجمل . والسيئون ، لا أخاف من أن أصورهم ، كما هم مشوهين .
كان يتكلم ، وكأن لا رغبة له بالكلام ، وكان ينظر إلي شزراً من تحت شعرات حاجبيه المنتصبة ، وأخذ يقيسني بنظراته ، ولكأنه يتأكد : هل أصغي إليه بانتباه ؟ اذ شعرت أنه بحاجة لمن يستمع إليه . . وأنا ، بسهولة ، جعلته يحدثني عن الحياة الحزينة ، المهانة ، التعسة (لولد متروك) . بدأ حياته معاون راعٍ ، وبعدها خدم عسكرياً في سرية غير محاربة ، ومن ثم خدم سنة ونصف ، في كتيبة الانضباط . وبعدها ، عمل قليلاً في ورشات النجارة .

- وبما أني أميل إلى مشاكسة الناس ، لم أعطهم ظهري مطية لهم .

عموماً ، هذه كانت حياة عادية لفنان وحيد ، ولع بشيخوخته بالابداع ، الذي لم يجد من يقّيم له ذلك .

رأيت عدداً غير قليل من أناس كهؤلاء ، وربما عززوا الثقة ، بأن البروليتاريا ، يمكن أن تقدم فنها ، وثقافتها ، مع أنها لازالت تقع في أسر البرجوازية . فكم من الناس الموهوبين ، أضاعوا مواهبهم الأصلية ، عبثاً ، ومجاناً ، وفي عمل رخيص ليحنوا منه قروشاً قليلة ، ويكون هذا العمل سبباً باخماد العقل ، من أجل البحث بِضِعَة عن كسرة حبز . كان أناس كهؤلاء ، بين عمال تصنيع الخشب ، في (بافولجي) وبين قبائل القفقاز صانعي الاسلحة ، وصانعي الفضة والذهب ، وبين عمال التطريز ، والتوشية بالدانتيلا بين مئات ألوف العمال والعاملات الذين اضاعوا العمر في الصناعات الفنية ، من أجل تزيين حياة كبار وصغار البرجوازيين . فهل كان يمكن أن نفكر ، أنه من خلال صانعي الايقونات ، الحرفة المحافظة ، والأشد محافظة ، في حقل الفن - الرسم ، الذي يخدم الكنيسة ، أن هؤلاء الرسامين دفعوا هذه الحرفة إلى حرفة عصرية متميزة ، والتي تخلق الاعجاب حتى في الناس الذين يتسلون ويمارسون الرسم .

لقد سميت الرسم ، فناً محافظاً ، لأن الرسم ، خدم ويخدم مصالح الكنيسة واهتماماتها ، وكذلك الحكايات المصّورة والاخلاق الدينية ، والدعاية التي تمجد صبر المسيح ، وآلامه وبطولاته . لقد خدم الرسم ، ويخدم ، في مضاعفة صور و (بورتريهات) القياصرة والجنرالات ، واصحاب المصارف ، والنساء المغناجات ، والتجار .

إن ثورة اوكتوبر التي نظمها ، وقادها حزب لينين ، عتقت الطبقة العاملة والفلاحين من أسر الرأسماليين اللاإنساني ، وأعطت كل جماهير الشغيلة حقوقها في العمل الحر . ولقد باتت مآثر هؤلاء الأبطال في أقل من عقدين بعد سقوط روسيا القيصرية ، الجاهلة ، الجائعة ، الضعيفة ، المهانة - روسيا الافطاعيين ، وأصحاب المعامل ، واصحاب المصارف ، وانقلبت إلى بلد قوي ، هو اتحاد الجمهوريات الشقيقة ، إلى بلد تحقد عليه كل برجوازية العالم ، وتبغضه ، لكنها تحترمه ، وتخاف

منه .

وستظهر أكثر فأكثر ، نتائج هدا الانتصار ، انتصار ثورة البروليتاريا ، التي يقودها الحزب ، والعمل الدؤوب من قبل كافة طبقات الشعب في جمهوريات اتحاد بلاد السوفييت الاشتراكية ، وبقوة هائلة تنكشف المواهب الجماعية لاطفالنا ، ففي كل يوم يظهر مئات الموسيقين الصغار ، والطيارون الشراعيون ، وأبطال صغار ، والذين بجرأة كبيرة ينخرطون في النضال ضد الاعداء .

سيرغي يسنين

في العام السابع أو الثامن ، وفي كابري ، روى ستيفان جيرومسكي لي وللكاتب البلغاري بينكو تودوروف قصته عن صبي فلاح ، وصل إلى مدينة كراكوف ، وتاه فيها . وقد دار في شوارعها ، مدة طويلة ، ولم يستطع بأي شكل من الاشكال ، أن يصل إلى تخوم حقله الرحب الذي اعتاده . وأخيراً ، عندما استولى عليه شعور أن المدينة ، لاتريد أن تطلق سراحه ، ركع على ركبتيه ، وصلّى ، ومن ثم قذف بنفسه من على الجسر ، في نهر " فيسلا " ، آملاً ، أن النهر سيحمله إلى الضفة الرحبة التي يريد . لم يتركوه يغرق . لكنه مات على أثر الصدمة .

هذه القصة البسيطة ، ذكرتني بموت سيرغي يسنين . .

رأيت يسينن أول مرة ، في عام ١٩١٤ . اذ التقيته ، في مكان ، ما مع كليوف . وقد خيل إلي آنذاك ، انه صبي أو ١٥ ـ ١٧ سنة ، أجعد الشعر ، أشقره، وكان يرتدي قميصاً أزرق وجزمه ، فذكرني بصور ساموكيتش سودوفسكي الأنيقة ، التي صورت أطفال الاقطاعيين الذين كانو متشابهين .

كان الليل ، في ذلك الصيف خانقاً جداً . كنا ثلاثة ، تمشينا في البداية ، في شارع " بارسينا" ، ومنه انعطفنا إلى جسر سيمونفسكي ، توقفنا على الجسر ، ننظر إلى المياه الداكنة السوداء . وماعدت أذكر عما تحدثنا . من المحتمل ، أننا تحدثنا عن الحرب . التي كانت قد بدأت .

ولّد يسينن عندي انطباعات متواضعة ، غير واضحة ، صبي حائر مرتبك ، تحس أنه هو نفسه لديه شعور بأن لامكان له في بطرسبورغ الكبيرة . والغلمان النظيفون ـ كهؤلاء ـ سكان مدن ، مثل : كالوغي ، أريول ، سيمبرسك ، تامبوف ، تراهم في حوانيت التجار ، والباعة ، وصناعاً عند النجارين ، أو في فرق الرقص ،

وفي جوقات الغناء . .

وبعد ذلك بزمن ليس قليلاً ، وعندما قرأت أشعاره الرحبة ، الساطعة ، القلبية والمدهشة ، لم أثق بأن الذي يكتب هذه الاشعار ، هو ذلك الصبي ، الأنيق كالمصّور في اللوحات ، مع الذي وقفت ليلاً على جسر سيميونفسكي ، ورأيته كيف كان يصق من بين أسنانه ، في النهر الأسود . بعد ست ـ سبع سنوات ، رأيت يسينن في برلين ، في شقة آلكسي تولستوي . فمن الصبي ، أجعد الشعر ، الذي يشبه اللعبة ، بقي عينان تلمعان ، وكأنهما احترقتا بالشمس الساطعة الحارقة . نظراتهما المضطربة ، تسقط على وجوه الناس ، نظرات متغيّرة ، تارة تنظر باختصار وطوراً تكون حائرة ، عديمة الثقة . وخيل إلي أنه إنسان غير اجتماعي بسلوكه مع الناس . وكان واضحاً ، أنه إنسان يسرف في شرب الخمرة : خدان منتفخان ، بياض عينيه أحمر ملتهب . بشرة وجهه ، وجلد رقبته رمادية مبيضة . كالذي لاينام جيداً ، ولايخرج إلى الهواء إلا قليلاً . أما يداه ، فمضطربتان وكفاه ، كما كفي ضارب الطبل تماماً . وكان قلقاً ، مشتتاً ، كالذي نسي أمراً هاماً ما ، ولم يعد يتذكر ما نسيه . كان بصحبته آيسدورا دونكان . وكوسيكوف . ـ ايضاً شاعر ،ـ قال يسنين ـ بهدوء ، ببحة في الصوت .

وقف كوسيكوف بالقرب من يسنين ، بدا لي ، أنه وقح جداً ، وزائد في الحضرة . كان مسلحاً بقيثارته ، الأداة الأثيرة عند الحلاقين ، واعتقدت أنه لايستطيع العزف عليها .

كنت قد رأيت دونكان على خشبة المسرح ، منذ عدة أعوام انصرمت ، قبل هذا اللقاء ، عندما كتبوا عنها ، كأعجوبة ، فأحد الصحفيين كتب عنها باندهاش : "ان جسدها الرائع الذي لامثيل له ، يحرقنا بلهيب المجد" . ولكنني ، لاأحب ، ولاأفهم الرقص النابع من العقل ، ولم يعجبني ، كيف أن هذه المرأة حشرت نفسها على المسرح .

أتذكر ـ أنها كانت حزينة ، وبدا لي أنها كانت تعاني البرد القاتل ، وهي نصف عارية ، تركض كي تتدفأ قليلاً ولتهرب من مخالب البرد .

عند تولستوي ، رقصت أيضاً ، وقد أكلت مسبقاً وشربت فودكا . وبرقصتها

جسدت صراع ثقل عمرها ، مع ثقل جسدها المنهك من المجد والحب . وهذه الكلمات لاتخفي وراءها مايمس بكرامة هذه المرأة ، بل تتحدث عن الشيخوخة اللعينة . إنها امرأة كهلة ، مترهلة ، وجهها أحمر ، غير جميل ، ملفوفة بفستان قرميدي اللون . دارت وتلوت في الغرفة الضيقة ، وهي تضغط بباقة زهر مدعوكة ، ذابلة إلى صدرها ، وعلى وجهها المترهل السمين تجمدت ابتسامة باهتة .

وقفت هذه المرأة ، الذائعة الصيت ـ المبجلة من الآلاف محبي الجمال في أوربا ، هؤلاء ، الرقيقون الذين يقوّموا فن النحت ـ جنباً إلى جنب مع هذا الصغير كالمراهق ـ شاعر ريزان الرائع ، وظهرت بشكل مطلق سافر ، انها لاتليق به ، ولا تلزمه البتة .

إن هذا ليس مختلقاً ، ولست متحاملاً عليها . لا ، بل ، أتحدث عن انطباعي ، في ذلك اليوم الثقيل ، عندما نظرت إلى هذه المرأة ، وفكرت : كيف لها ، أن تحس بمغزى تأوهات الشاعر :

حسناً أن تبتسم للقمر
قاضماً القش على الكومة .

وماذا يمكن أن تقول لها ابياته الساحرة الحزينة :

إني ادخل المتاهة ، ليس من أجل المرأة
ففي الهوى الأحمق ، لاقوة للقلب فيه

تحدث يسينن مع دونكان بالاشارات ، وبتصادم الاكواع والركب ، وعندما كانت ترقص ، كان جالساً وراء الطاولة يشرب نبيذاً ، ويسترق النظر إليها ، من زاوية عينيه . كان ينظر إليها ، ويقطب حاجبيه . ويمكن أنه في هذه اللحظة بالذات ، نبت هذا البيت الذي يجسد ألمه :

لقد احببناكِ . لقد احببناك ، وتلوثنا

ويمكن الاعتقاد أيضاً ، أنه كان ينظر إلى صديقته ، كما ينظر المرء إلى أمر مخيف اعتاده ، ولا يخافه ، لكن ومع هذا يضغط عليه . مراراً مسح على رأسه كالاصلع ، عندما تقرصه ذبابة بجلدة رأسه . بعدئذ سقطت دونكان منهكة ، على ركبتيها ، ناظرة في وجه الشاعر بفتور ، وعلى ثغرها ابتسامة امرأة غير صاحية .

فوضع يسنين يده على كتفيها ، وبسرعة أزوّر عنها ، ومن جديد ظننت : أليس في هذه اللحظة ومضت في خاطره هذه الكلمات القاسية الرقيقة :

لماذا تنظرين كالرذاذ الأزرق ؟
أتودين ضربي على بوزي ؟
ياعزيزتي ، أبكي أنا
سامحيني ، سامحيني

طلبت إليه أن يقرأ شعراً ، فوافق برغبة ، وقف وبدأ الصراح التراجيدي كان في البداية ، وكأنه ممثل مسرحي :

ياأيتها المجنونة ، المسعورة ، ياعكر الدم
ماذا أنت ؟ الموت ؟ !

وبسرعة ، شعرت أن يسنن يقرأ بشكل يهز الاعماق ، وسماعه أصبح صعباً حتى البكاء . ولا استطيع أن أسمي قراءته ، كقراءة ممثل ، أو حاذق ، ماهر بالقراءة ، وكل هذه النعوت ، لاتقول شيئاً عن صفات قراءاته . صدح صوت الشاعر متقطعاً ، وفيه شيء من البحّة ، وبصدق ساطع ، وبشكل رائع ، وبقوة ، وبلهجة مختلفة ، كرر طلب المحكوم بالاشغال الشاقة :

أريد أن أرى هذا الانسان !

وبصوت أروع ، مشخصاً صوت الرعب :

أين هو ؟ أين ؟ ليس من المعقول أنه لايوجد !

لم اصدق ، أن هذا الانسان الصغير يمتلك هذه القوة العظيمة من المشاعر ، ومن القوة التعبيرية الهائلة . لقد اصّفر وهو يقرأ ، حتى انقلبت أذناه رماديتين ، ولوح بيديه ليس على ايقاع الشعر ، اذ انطلق ايقاعه الشعري ، بحيث لايمكن الامساك به . كثقل الكلمات الصخرية ، المتقلبة ، مختلفة الاثقال . وعموماً : صوته المبحوح المتقطع ، إشاراته غير الواثقة ، جسمه المرتعش ، عيناه الكئيبتان الملتهبتان ـ كل ذلك ـ كان كما يجب أن تكون عليه الحال ، في الوضعية المحيطة آنذاك بالشاعر .

وبشكل رائع مذهل ، قرأ سؤال بوغاتشيف ، وكرّره ثلاثاً :

أمَسّكِ الجنون ؟

وبصوت عال وغاضب ، ومن ثم بهدوء وحرارة :
أمَسّكِ الجنون ؟
وفي النهاية ، بصوت جداً مسخفضاً ، تأوه يائساً :
أمَسّكِ الجنون ؟
من قال لكم ، اننا منسحقون ؟
وبشكل مدهش ، لا يمكن وصفه ، سأل :
أصحيح ، تسقط تحت ثقل الروح
كما تسقط تحت الحمل الثقيل ؟
وبعد برهة ، تنفس الصعداء ، ودون أمل همس :
ياأيها الاعزاء . . ياأنتم
ياأيها الطيبون . . .

لقد أثارني حتى تشنجت حنجرتي ، وراودتني رغبة بالبكاء . وأتذكر ، أني لم استطع أن أقول له شيئاً من قبيل المديح ، وحتى هو لم يكن بحاجة لمديحي .

وطلبت إليه أن يقرأ قصيدته (عن الكلب) الذي سرقوه وألقوا به في نهر الجراء الميتة .

ـ إذا لم تتعب طبعاً .

ـ أنا ، من الشعر ، لاأتعب ، وسأل غير واثق :

ـ اتعجبكم قصيدة "عن الكلب" ؟

قلت له ، في رأيي ، أنه الأول ، في الأدب الروسي ، الذي استطاع ، أن يكتب بحب صادق عن الحيوانات .

ـ أجل ، أحب كل الحيوانات . وسألته ، إن كان يعرف "جنة الحيوانات" . لم يجب عن سؤالي بل مسح رأسه بكلتا يديه ، وبدأ يقرأ "أغنية عن الكلب" .

وعندما نطق بالسطر الأخير :
انطلقت عينا الكلب
نجوماً ذهبية في الثلج

ترقرقت الدموع في عينيه أيضاً ، بعد هذه الاشعار . فكرت ، أن سيرغي

يسنين ، ليس أنساناً فحسب ، لكنه كمخلوق ، هو هبة الطبيعة الاستثنائية للشعر ، ومن أجل التعبير عن الحب الذي لاينفد ولا ينضب ، وعن "كآبة الحقول" ، والحب لكل من هو حي في الالم ، وأكثر من كل هذه الكائنات ، الانسان . وهنا ، اتضح بشكل ملموس ، عدم أهمية كوسيكوف وقيثارته . ودونكان ورقصها ، واتضح عدم أهمية مدينة برلين المضجرة ، وعدم أهمية كل ماأحاط بالشاعر الروسي الموهوب .

وفجأة ، أصيب بسأم وقرف ، وأخذ يلاطف دونكان ، كما كان على الأرجح يلاطف فتيات (ريزان) وضرب ظهرها بكفه مداعباً ، واقترح علينا الذهاب ، قائلاً : إلى أي مكان ، فيه ضجيج .

قررنا الذهاب مساءً إلى لونارىارك (حديقة القمر) وفيما كنا نرتدي معاطفنا ، قرب الباب ، صارت دونكان ، تقبل الرجال بلطف . وقالت متأثرة ، انه لقرار جيد ، ولا يوجد أفضل من ذلك ، عندها ضربها يسين على ظهرها بفظاظة الغيرة ، وصرخ :

ـ لاتتجرأي على تقبيل الغرباء .

واعتقدت ، أنه فعل هذا ، فقط ، من أجل أن يسمي الناس الموجودين بالغرباء . .

حديقة لونارىارك الرائعة الجمال ، المثيرة انعشت يسنين ، وشرع يركض باسماً من لعبة إلى أخرى ، وأخذ يتطلع كيف يتسلى الألمان المحترمون محاولاً أن يضع السيف في فم القناع الكرتوني ، وكيف ينخلع القناع من على السلم المهتز ، ويقع بثقل على الأرض ، ومن ثم يرتفع عائداً إلى مكانه مترنحاً . كانت أنواع اللعب والتسلية البسيطة كثيرة ومتنوعة لا تحصى . أشعلت النيران في كل مكان ، وصدحت الموسيقى التي يمكن تسميتها "موسيقى من أجل السمان"

ـ تعكرنا ، من هذه التسليات غير الممتعة ، قال يسنين وأضاف : أنا لا أعُيّب (لا أنتقد) .

بعدئذ ، وبمدة ليست قليلة ، قال : إن فعل "عيب" أفضل من فعل "ذم" . واستطرد :

ـ الكلمات القليلة ، دائماً أفضل من الكلمات الكثيرة الركيكة . إن العجلة التي

نظر بها يسنين إلى الملاهي والتسليات أوحت بالفكرة التالية : إن الانسان يريد أن يرمي كل شيء من أجل أن ينسى بسرعة . وفجأة ، توقف قدام (كشك) وكان دائري الشكل ، تصدر عنه اصوات مختلطة ، وسأل بشكل سريع غير متوقع :

ـ اتعتقد ، أن أشعاري ضرورية ؟ وعموماً ، الفن ، أقصد الشعر ، هل هو ضروري ؟ .

كان السؤال في مكانه تماماً ، ـ لوناربارك ، مضحكة من غير شللر . ولكنه لم ينتظر جواباً عن سؤاله ، فقال : فلنذهب نشرب نبيذاً

على الشرفة الواسعة في (الكازينو) ، حيث كان الناس مزدحمين مسرورين ، فجأة ، اكتأب مرة أخرى ، وبدا مشتتاً ، ممتعضاً ، والنبيذ لم يعجبه .

ـ انه حامض وله رائحة الريش المحروق . اطلبوا نبيذاً فرنسياً أحمر ، ولكنه شرب النبيذ الأحمر أيضاً ، من غير رغبة ، وكأنه كان مجبراً عليه . وسمر نظره ساهماً حوالي ثلاث دقائق . إذ كانت امرأة تمشي على حبل مشدود في الهواء ، وقد وجهّوا إليها إنارة بنغالية ، بدت وكأنها تتطاير كالشهب الصاروخية ، ومن ثم تنطفيء وتنعكس في الماء ، وكان ذلك جميلاً ، لكن يسينن همس :

الجميع يريدون الأمر المرعب . وبالمناسبة ، أنا أحب السيرك ، وأنت ؟

لم يثر يسنن انطباعات انسان لاهٍ ، أو مراءٍ ، كلا ، بل كان كالذي ، وقع في هذا المكان المرح المشكوك بمرحه بشكل قسري ، أو حضر " من قبيل المجاملة " أو كالانسان الذي لا يؤمن ، وزار الكنيسة ، وصار ينتظر بفارغ الصبر متى تنتهي الصلاة . .

● **العشق الجنسي والمقدس**

تأليف: فيليب كامبي

● **طريقة مونتسوري في تربية الطفولة المبكرة للأم والمعلمة**

تأليف. إليزابيت ح. هيستوك

● عين الزهور «سيرة ضاحكة»

تألف بوعلي ياسين

الفهرس

إصدارات حديثة

- **عمل الدعاة الاسلاميين في العصر العباسي**
  تأليف: خيرالله سعيد

- **العنف والمقدس**
  تاليف. رينيه جيرار

- **الفن عند الإنسان البدائي**
  (دراسة مدعمة بالصور العادية والملونة)

  تأليف : يان إيلينيك